فيلـــم هنـــدي

فيلم هندي

भारतीय फिल्म

روايـــــة

محمد صلاح الدين

اسم الكاتب: محمد صلاح الدين
اسم الكتاب: فيلم هندي
تدقيق لغوي: شيرين عابدين
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – أغسطس ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 15582
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6645 – 69 – 1

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إن هذا العالم الذي نعيش فيه لا تختلف أحداثه كثيرًا عن أحداث فيلم هندي، ضحك ورقص ثم بكاء... حب ولوعة ثم فراق... لعب ومغامرة ثم حساب.

محمد السيد صلاح الدين

الفصل الأول

تأتي اللحظة الحاسمة التي يظل الإنسان متناسيًا قدومها حتى يسدل الستار على مشهد احتضار المرء ويرى فيها كل تفاصيل رحلته في الدنيا رغما عنه، ولا بدَّ أن يكون ذلك المشهد محملا بما عاش به طوال حياته.

طباعه تغلبه، مخاوفه تحاوطه ، هواجسه المستمرة تهتاج عليه وحديث لسانه المعتاد يظل ملازمًا له.

يمر شريط الذكريات بالإنسان حال قرب أجله فيرى مجمل أعماله وكأن قرصًا صلبًا يدار على جهاز حاسوب وشاشة عرض تعرض عليه كل صغيرة وكبيرة في حياته، وبعضهم يرى العالم الآخر الذي ينتظره.

يتعجب المرافق للمحتضر على فراش الموت من أحاديثه العبثية أحيانا والدقيقة والصادقة والتي بها رسائل كثيرة أحيانا أخرى. إنه مشهد الصدق والوعد المحتوم والحقيقة التي طالما ظن الإنسان أنها بعيدة عنه لمجرد أنه استيقظ من موتته الصغرى (النوم) نشيطًا معافى.

أتذكر عند اقتراب وفاة والدي وهو سليم البدن وحاضر الذهن قال لأمي لا تتزوجي بعدي، فاندهشت أمي من وصيته التي لا مجال لذكرها خصوصًا أنه ليس مريضًا أو مقبلا على عملية جراحية خطيرة ومعقدة أو كان على فراش الموت حتى يوصي بشيء ، وأيضا نظر لي نظرة إشفاق وهو يقول أخشى على حياتك من بعدي كيف ستعيش؟ إن العالم مخيف ومرعب وأنت ما زلت بريئًا، قلت له بارك الله في عمرك لا داعي للتفكير بتلك الأمور.

كل الذين أدركوا لحظات احتضارهم أو أصيبوا بمرض خطير وأدركوا أن الموت قد اقترب مبلغه تركوا رسائل كثيرة لأزواجهم وأولادهم واعتصروا أذهانهم حتى يقدموا كل ما يعرفونه في محاولة منهم لتيسير حياة ذويهم وحفظهم من الوقوع في أزمات من بعد غيابهم.

كان المرض قد اشتد على ذلك الرجل الحكيم الذي يدعى (صابر) وهو في السبعين من عمره، وكان له ولد اسمه (يحيى) لما يجاوز العشرين عامًا.

فقد تزوج كبيرًا لضيق حاله والتزامه بتجهيز إخوته البنات قبل أن يتفرغ لنفسه ويبني شقة مستقلة به في الطابق الخامس فوق سقف شقيقه الأصغر.

أوصاه أبوه على فراش الموت بألا يخرج أخواته البنات من المنزل:

كل رجل يريد الزواج منهن يقبل بأن يعيش في هذا المنزل، بناتي لا تخرجن من بيت أبيهن، لا تجعلهن يا (صابر) تحت رحمة أحد، فالبشرية تغيرت وطباع الرجال متقلبة غير مأمونة.

كان المنزل من ثلاثة طوابق، ظل وأخوه الشاب يتنقلان من طابق إلى طابق عند زواج إحداهن حتى بنى الدور الرابع لزواج شقيقه (رشدي) وعاش في غرفة صغيرة على السطح حتى استطاع بعد جهد عظيم أن يقفل السطح لشقة حتى اكتمل المنزل إلى خمسة أدوار.

كان (يحيى) يمر من أمام عينيه ونظرات الحزن والإشفاق تتملك وجنتيه، فيقول لنفسه دائما ماذا لو مت في الصباح وتركتك وحيدًا يا ولدي بلا سند ولا مال؟

ثم يغمض عينيه ويقول يا ليتني ما تزوجت وذهبت إلى قبري بمفردي وليس لي في الدنيا ولد يتألم أو يلاقي معاناة لا يطيقها.

إن أصعب اللحظات التي تمر على الإنسان شعوره بالندم على فعل شيء كان صحيحًا وحلالا ومنزهًا من أي دناءة ومكر، جلب له الألم والمعاناة وحمل فوق عاتقه تلالا من الهم وجلب لصاحبه الحسرة.

والزواج عادة في سن متأخرة بعد النضج والكفاح وسنوات الشقاء لن يكون محملا بالسعادة الخالصة وجنون الحب والمشاعر المولعة دائما مع شريكة الحياة. فقد عاش (صابر) حياة زوجية مرة وكثيرة التقلبات والعثرات، لم تترك له الحياة قلبًا ناصعا ولامعا كي يهبه مغلفا ومطرزا لحياة شخص آخر حتى يسعده ويغدق عليه من فيض المشاعر والحنان.

تارة يشعر بأنه مظلوم من تلك الزيجة ومرة يستشعر بأنه قد ظلمها معه، فقد كان ينبغي له ألا يتظاهر بالوله والرومانسية المفرطة كي يرضي هواجس نفسه وغرورها التي كانت تقول له أنت ما زلت صغيرا وقادرا على السهر والسمر والغزل كباقي الشباب.

وهل عند الخمسين يبقى قلب الرجل شغوفًا لشيء؟

وهل فرق العشرين عامًا بين الرجل والمرأة عادل ومنصف للطرفين؟

أحبته لحكمته، وَصِيتِه في الحي بأنه صاحب رأي رشيد وقول سديد وطلة بهية وهيبة من غير سلطان وجاه بغير مال.

دق على أبواب نساء تكبرنها في السن من المطلقات والأرامل فلم يرضين به لفظاظة ملامحه وجفاء تعاملاته، فكن يعرفنه تاجرًا للعطارة معقدًا لا يلمس يد امرأة منهن عندما تحاسبه وتعطيه ثمن مشترياتها. بل هن اللاتي يحاولن الإمساك بيده والنظر إلى عينيه الصارختين في القوة والافتتان. لا توجد واحدة في الحي لم تفتتن به في شبابه رغم فقره.

وبعد طول بحث عن سيدة يتزوجها جاءت إليه (نعيمة) الخاطبة تبش له البشارة أنها ارتأت له عروسًا بكرًا وبنت بنوت لم يمسسها بشر من قبل.

إلا أنه عندما أبلغته بسنها تراجع قليلا وخشي المغامرةَ.

قالت له الخاطبة لا تكن جبانا ودعك من العواجز وأصحاب التجارب فأنت بكر أيضًا ويلزمك فتاة تزيح من على جلد وجهك غبار الزمن وندباته.

مد يده إلى علبة حبوب الحبهان ووزن لها ربع كيلو وأعطاها هدية لها.

أخذتها مصوبة عينيها ناحية شوال الفستق وقالت له ضاحكة: إن أعجبتك (رئيسة) فسوف تكافئني بالفستق.

رفع حاجبيه ضاحكًا: عيناك دائمة النظر إلى السلعة الغالية.

يا لك من ذكية لقد أشرتِ إلى الفستق الهندي!

أجابته ضاحكة: والله لا أعرف موطنه، كل ما في الأمر أنني اشتقت إلى مذاقه.

وفي أثناء ما كانت (نعيمة) تعطيه ظهرها صاح فيها وقال متعجبًا (رئيسة)!

اسمها (رئيسة)؟ يا له من اسم نادر!

استدارت بجسدها ناحيته وقالت: هي بالفعل نادرة الجمال والأصل الطيب والمتواضع، يكفي أنها تريد أن تعيش غير متنمرة ومتطلعة لشيء، شبعانة يا (صابر) خذها شبعانة ولا تأخذها فارغة العين تقارن نفسها بكل واحدة تمر أمامها.

يبدو أنك مقنعة يا خاطبة الحي...

ضحكت وهي تقسم له: والله لو أن لي بنتًا ما تركتك تهرب من يدي.

ضحك (صابر): إذن لا داعي للتأخير! أخبري والديها بأنني قادم إليهم يوم الجمعة بعد صلاة العشاء.

نظرت إلى كيس الحبهان قائلة: آمل أن يكون الحبهان هنديًّا هو الآخر أريد أن أشعر بأنني محظوظة في رزقي، وهديتي مميزة، وانصرفت مسرورة تبشر والد (رئيسة) وتخبره بالموعد.

ابتهجت الفتاة الجميلة التي تأخر زواجها لعدم اقتناعها بشباب ذلك الزمان، كانت مختلفة في تفكيرها عن باقي زميلاتها لم تود أن تتزوج لشاب ذي تركة جاهزة موروثة من أبويه كانت تحلم بشاب

صنع نفسه بنفسه دون أن يتكل على أحد. ذلك الرجل الذي ظل في مخيلتها كان (صابر)، هو بطل خيالها الوحيد بلا منافس، كونه عازبًا غير متزوج فسيرته دائما حاضرة بين مجالس النساء: فلِمَ لَمْ يتزوج إلى الآن؟ وهل يستطيع رجل أن يحارب شهوته الجامحة دون أن يستمتع بالمضاجعة؟ تقول امرأة سافرة: ربما يعيش عابثًا في أحضان النساء ولا يحتاج لزوجة تقول له كل يوم أريد فستانا وعباءة وهاتفا محمولا جديدا؟ رمقتها سيدة مسنة: كفي عن الافتراءات فذلك رجل لا تمس يداه يدينا ولا يطلق عينيه على أجسادنا فكيف له أن يزني؟

ومن تلك السيرة العطرة والمثيرة للجدل أيضا تعلقت الفتاة (رئيسة) التي لم تسلم هي أيضا من ألسنة النساء الأفاعي بسبب تأخر زواجها.

كانت تعلم ما يقال عنها فكما تكلموا عن (صابر) وهو رجل فما بال سيرتها وهي فتاة! ذلك المجتمع الملوث ذهنيًّا الذي يربط الأعضاء التناسلية بكل حكاية وبكل عمل يشترك فيه جنسان مختلفان.

دق جرس باب العروس ودخل (صابر) بيتها بمفرده حاملا بيده علبة حلاوة طحينية فاخرة محشوة بالمكسرات والبندق.

عانقه أبوها قائلا: مرحبًا بالتاجر الحكيم

فوجئ (صابر) بأن له كنية في الحي غير الرجل عدو النساء الهارب من الزواج.

جلسا في غرفة الصالون يتبادلان الحديث عن أحوال الحي وأن كل شيء تغير وأصبحت أسطح المنازل مكتظة بأطباق الدش وأسلاك التليفونات الأرضية والإنترنت، وكيف أن الحي القاطن بمصر القديمة قد دخلته التكنولوجيا الحديثة بالرغم من البيوت العشوائية والمتهالكة، وأن الفسق قد دب في كل منزل والفتن باتت تقتلع أبواب حجرات نومهم دون أدنى مقاومة منهم أو رغبة في صدها.

الكل مستمتع بما يحدث ويطلبون المزيد ويتعمقون في الممنوع حتى تزداد نشوتهم، بات شباب الحي مختلطين بعضهم ببعض على الإنترنت في الخفاء أكثر من اختلاطهم بالحقيقة. حتى دبت الشكوك

والظنون وكثرت الخيانة ولم يسلم عرض أحد من عبث الألسنة في حرماته.

أجابه والد (رئيسة): معك حق؛ ولذلك أريد أن أهبك ابنتي لتحفظها فليس لي غيرها فهي يتيمة الأم ولن أعيش لها أكثر مما عشت؛ أوصيك يا (صابر) أن تكرمها.

تأثرت عينا (صابر) باسترضائه من أجل أن يكرم ابنة الرجل ووعده بأن يحسن إليها إن كان للنصيب قرار في أن يجمعهما ، ودخلت العروس (رئيسة) تحمل صينية العصير والكيك البيتي اللذيذ وطبق فاكهة كبيرًا.

رآها (صابر) وقد انتشت رغبته في النكاح بها في الوقت نفسه، جلست على استيحاء مطأطئة الرأس خافضة العين وحجابها الزاهي المزين بالنقوش والرسومات قد توجها في عينه وجعلها ملكة لا يصح أن يفوتها من يده ما دامت هي راضية وغير مستاءة من مسألة السن.

تفرس ملامحها جيدًا ثم سألها: هل اشتريتِ مني شيئًا لمطبخك من قبل؟

هزت رأسها قائلة بصوت خفيض: نعم، أنا زبونتك.

ابتهج (صابر) قائلا: نعم نعم ملامحك ليست غريبة عليَّ.

تعجبت (رئيسة): ليس من عادتك إطالة النظر في زبائنك قد عهدناك على تلك الخصلة النبيلة.

نهض الأب من مكانه كي يفسح لهما المجال للحديث معًا، أمسك (صابر) بيده وأجلسه ثم قال: لا داعي لمثل هذه التصرفات التقليدية فأنا أريد أن يكون زفافنا يوم الجمعة القادم.

دهشت (رئيسة) ونطقت على استحياء: يا إلهي ألن نخطب أولا؟

أجابها والسخرية ظاهرة في كلماته: وهل أنا من حديثي التخرج من الجامعة أو أنهيت مدة تجنيدي بالجيش أمس!

ضحك الرجل وقال لابنته: لله هو محق، وأنا أؤيده وأوافق مبدئيا على ذلك العرض، لا سيما أن جهازك كامل من الإبرة للصاروخ.

ثم انتبه الأب أخيرًا إلى أنه لم يسأله عن تكاليف الزواج وما المطلوب من كل طرف، فقال: لقد باغتني يا صابر وحبست عقلي ولم أعرف منك شيئا عن شقتك وعدد الغرف و...

قاطعه قائلا: هي مفروشة بكل شيء على أحدث طراز بسوق الموبيليا، تعال قبل الزفاف بيومين ومعك جهاز ابنتك وأمتعتها لترتبوا كل شيء في مكانه.

انشرح صدر الرجل ونظر لابنته قائلا: ماذا عنك يا ابنتي؟ خير البر عاجله.

تملكها مزيج من الفرحة مع الحياء وهمست: حسنًا موافقة.

انصرف (صابر) من المنزل وعلامات السرور مطبوعة على وجهه، رأته الخاطبة -التي كانت تتسكع أسفل المنزل وتتظاهر بالشراء من هذا وذاك- خارجًا من بوابة منزل العروس دون أن يمر من الوقت نصف ساعة، فاضطرب قلبها وتوجهت إليه مسرعة: معقول لم تعجبك يا (صابر)؟ ضحك قائلا: نعم إنها صغيرة جدا ورقيقة ولكني سوف أتزوجها الجمعة القادمة ابتهجت السيدة واستنشقت نفسا طويلا ثم أطلقت زغرودة مدوية سمعها كل الحي فانتبهوا إليها! ما الأمر ماذا حدث!

أخبرت المنتبهين من المارة والمحلات والخارجين من شبابيك بيوتهم، (صابر) سوف يتزوج من (رئيسة) ابنة الحاج (أحمد السباعي).

لم يعلق أحد ولم يُسمع صوت أحد منهم يبارك.

قال الخياط (سمير) لإحدى زبائنه من الحي: العطار العجوز سوف يتزوج فاتنة الحي (رئيسة). أجابته الزبونة وهي جارته أيضا: يا ربي إن الفرق بينهما شاسع!

وبعدما استفاض(سمير) في الشجب والانتقاص منه قال ساخرًا: لا شأن لنا بحياة أحد فليفعل ما يحلو له.

أجابته ساخرة ملوحة شفتيها: لن يستمرا طويلا.

وصل خبر إلى الحاج (أحمد) والد العروس بأن الحارة متعجبة لقبوله عروسًا يكبر كريمته بعشرين عامًا ! سأله إمام الجامع الذي يصلي فيه الفجر وكان بالطبع صديقًا مقربًا له: لقد أتيت لك بعرسان من أزهى الأسر وأرقى المهن وفي ريعان شبابهم وتحمسهم ورفضتهم ابنتك وقبلت بهذا الكهل الشاحب الوجه الذي لا يبتسم لأحد منا. أيعقل هذا يا صاحبي؟

حزن الحاج (أحمد) من مصارحة صديقه بالاستنكار لتلك الزيجة وعاد إلى منزله والغضب يتأجج من عينيه.

تأخرت ابنته في الاستيقاظ من النوم وهو على شغف في أن يخبرها بأن تراجع نفسها في ذلك القرار الذي لم يرحب به أحد.

ظل يمر كثيرا من أمام غرفتها ويدب بقدميه ويحدث أصواتًا من شأنها أن تزعجها وتقلق منامها، حتى استيقظت على صوت أطباق من الخزف تسقط على أرض المطبخ وتنكسر. هبت من سريرها وارتدت روبها وهرعت إلى المطبخ فوجدت أباها يمسك بالطبق الرابع ويستعد لإلقائه على الأرض حتى يوقظها.

ما هذا يا أبي؟

لماذا تهشم الأطباق؟

هل أنت بخير؟

خجل الرجل من نفسه عندما هُيئ لابنته بأن عقله قد ترنح وتهاوى لكنه أخبرها بحقيقة الأمر وأنه تعمد فعل ذلك لإقلاق نومها ليحادثها.

أمسكت بالمقشة والجاروف ونظفت ما أحدثه أبوها وترجته أن ينتظرها في الخارج حتى لا تقع قدماه على شظية من خزف فتجرحه.

أنهت تنظيف المطبخ وذهبت إلى أبيها الذي كان ينتظرها في غرفة الصالون، وقبل أن تضع شيئًا في فمها أو تغسل وجهها قالت له: ما الأمر الملح الذي أفقدك صوابك إلى هذا الحد؟

باغتها بالسؤال مباشرة هل أنت مقتنعة بـ(صابر)؟

دُهشت من سؤاله ووجم وجهها وقطبت ما بين حاجبيها وأجابته: بالطبع نعم فكيف أوافق على زيجة لم تقنعني؟

ولِمَ هو تحديدًا؟ وقد رفضتِ المدرس والدكتور والمهندس وجميعهم كانوا مناسبين لسنك؟ صفي لي بالتحديد لماذا هو؟

بادلته السؤال بسؤال قائلة صف لي أنت ماذا حدث وغير بهجتك إلى تلك الحيرة المقلقة؟ هل سمعت شيئا عن (صابر) في ذمته أو سمعته؟

- كلا، فهو والله زينة الرجال ولا يعيبه شيء، ثم صمت قليلا وابتلع ريقه وقال لكن يعيبه فارق السن، الحارة كلها ليس لها سيرة غير عدم التكافؤ بينكما.

نهضت من مقعدها وقالت بلهجة متعالية: الناس خلقوا ليعترضوا قرارات الآخرين بينما هم غارقون في كوارث اختيارهم.

ثم أردفت قائلة: إنها المرة الأولى التي أراك فيها متوجسًا من ألسنة الناس هل أنت حديث عهد بالحارة؟ ألا تعرف طبيعة السوق وغيرة التجار بعضهم من بعض! ألا تعلم أن ألسنتهم طالت العفيفة قبل السافرة والمؤمن قبل الفاجر، إن (صابر) رجل الحارة الوحيد الذي لا يغتاب أحدًا ولا يجلس على النواصي يتلصص عن خطيئة أحدهم ليجعل منها تسلية له طوال سهرته.

هل سمعت منه منكرا؟

"بغضب" من فضلك أجبني!

قام من مقعده هو الآخر وعانقها وأمسك بكتفها وجذبها ناحيته وقبل رأسها قائلا: فليبارك الله لكما ويحفظ سركما وليذهب الناس إلى الجحيم.

الفصل الثاني

في دعوة على عشاء يوم السبت أعلن صابر لأخوته الأربعة، الثلاث بنات وولد عن قرار زواجه، بعد لحظات من الدهشة وشرود أذهانهم قليلا، أبدوا السعادة والرحابة لذلك القرار الذي كان بالأمس منسيا، إلا أن وجوههم تبدلت واتشحت بالسواد بعدما عرفوا بالعروس المنتظرة التي تصغره بعشرين عامًا!

وبابتسامة متكلفة باركوا له وتمنوا له حياة سعيدة.

استشعر (صابر) أن المباركة ليست نابعة من القلب، فقد كان يشتهر بحساسية دقيقة في استشعار الصدق من الكذب حتى في المشاعر.

وبدهاء ماكر قال لهم: إذا كان لكم رأي آخر في زواجي فأنا على أتم الاستعداد لقراركم، ثم صمت قليلا وأردف قائلا: لا داعي أصلا من الزواج لقد فاتني القطار وجرى بي العمر.

بادرتهم اليقظة واستجمعوا رشدهم وأجابوا بلهفة: بل نحن فرحون لك، استمر إنها خطوة رائعة وقامت أخته الثلاثينية (منال) بإطلاق زغرودة تأكيدًا له على الفرح والمباركة.

نهض من على مائدة الطعام قائلا: سأدخل إلى فراشي كي أنام.

أنهوا طعامهم وتهامسوا بصوت غير مسموع وتكلموا بأعينهم وبالإيماءات والإشارات وهموا بالخروج من منزله والنزول إلى شققهم بالأسفل.

جلس (صابر) أمام حوض سمك صغير بغرفته، به سمكتان ذكر وأنثى ملونتان بألوان زاهية بديعة. قال لهما وهما يسبحان في الحوض ويداعب بعضهما بعضًا: عندما استهوتني فكرة شراء حوض به سمكة واحدة خشيت أن يكون للسمكة مشاعر مثلنا، تحب وتشتاق وتستأنس وتجامع وتنتشي بالعناق والقبلات. فقلت للبائع أعطني زوجًا من السمك ذكرًا وأنثى، وأوصيته ألا يترك أقفاص العصافير والحمام والببغاوات فرادى فهم مثلنا يستأنسون، يألفون ، يحزنون، يكتئبون ويموتون من الوحدة والفراق.

أتذكر وقتها استغراب البائع، إلا أنه كان متأثرا وأعتقد أنه قد نفذ وصيتي.

غير أني لم ألحظ الفرحة على وجوه وأعين أخوتي بقرار زواجي وكأنهم اعتادوا على جلوسي وحيدًا بين الحائط والمذياع وحوض السمك. لم يعتبروني إنسانًا بل يعتبروننني فقط بنكًا وحسابًا مفتوحًا لمستقبلهم ومستقبل أولادهم. تابع نظرته للأنثى البرتقالية اللون وقال يحدثها: إنني أشك أنهم قد قسموا تركتي وشقاء عمري وأنا حي على أولادهم المتعثرين في الجامعة والعاطلين الذين تخرجوا ولم يرغبوا في الوقوف معي في تجارتي.

ثم أغمض عينيه في استياء وقال لم يكن بمخيلتهم أن ينافسهم على التركة أحد.

استدار بجانبه على السرير ومد يده يشغل صوت إذاعة القران بالراديو ونام نومًا عميقا حتى الصباح.

إن ما يؤرق الإنسان أن يبذل ولا يأخذ وأن يحب ولا يُحب وأن يُراعِي ولا يراعيه أحد. مشكلتنا الحقيقة تكمن في نقص التعاون

وتبادل المشاعر وتذكر المعروف ورد الجميل، وأن تكون العناوين الرنانة للأخوة والأقارب والتراحم حقيقية ليست مجرد حبر على ورق.

ذهب (صابر) إلى محلات حُلل الزفاف يتفقد أسعارها والموديلات التي تليق به، وقف أمام المانيكان وعادت به الذاكرة إلى الوراء قرابة الخمسة وعشرين عامًا، تذكر وقفته الحائرة أمام عروض الموديلات يتخيل نفسه عروسًا شابا يافعا ووسيما، كانت تلك اللحظات القليلة التي يقف فيها أمام الحاجز الزجاجي خلف المانيكانات كفيلة أن ترسم له مشهد الزفاف كاملا حتى يخرج صاحب المحل رأسه من خلف الزجاج ويقول له: تفضل اختر الموديل الذي يناسبك. لكنه كان يتراجع وينصرف من أمام العرض فهو مجرد مشاهد ليس مشتريًا ولا على أعتاب مناسبة سعيدة.

أغمض عينيه والدموع تتساقط من وراء جفنه فمسحها بيده ودفع باب المحل لأول مرة ليشتري حُلَّةَ زفاف.

رحب به العاملون بالمحل وسأله البائع عن الشكل والخامة والمناسبة التي يود (صابر) أن يرتديها فيها.

أخبره بأنها مناسبة زفاف، ابتهج البائع وقال له بعفوية زفاف أحد أبنائك؟

تنهد (صابر) بمرارة وبصوت منكسر: نعم إنه كذلك.

أخرج له البائع حلتين إحداهما سمراء والأخرى رمادية، ثم نصحه قائلا: يفضل أن تأخذ الرمادية لأن العروس يرتدي السوداء.

أخفض (صابر) عينيه وهز رأسه ومد يده ناحية السوداء غير مبالٍ لما سمع. تعجب البائع من اختياره وقال في قرارة نفسه يا له من رجل عنيد متحجر الرأس لكن لا يهم المهم أن أبيع له.

دخل غرفة الملابس ليقيسها ونظر إلى هيئته وابتسم بسخرية بالغة وقال للمرآة أرجو ألا أكون قد أزعجتك بتلك الصورة التي تشاهديننني عليها فإني أعلم أنه ما كان يفترض بي أن أقف هكذا أمامك.

سمعه البائع وظن أنه يتحدث في هاتفه المحمول فلم يهتم وراح يجهز له قميصًا ورابطة عنق تليق بحُلته السوداء.

خرج (صابر) مرتديًا الحُلَّةَ بأكمامها الطويلة، ورجلي البِنْطال المتدليتين على الأرض. أحضر البائع طباشير بيضاء ليعلِّم على طول الأكمام ورجلي البنطال المناسبين لطوله وقال له: اخلعها الآن حتى آخذها إلى الخياط المجاور لنا يقصر لك الزيادات ثم نعود لتقيسها على القميص ورابطة العنق.

جلس على كرسي في آخر المحل يتأمل العاشقين وهم يختارون معًا الحُلل وربطات العنق، وكل شاب يلبس على حسب اختيار الفتاة التي ترافقه. تذكر(رئيسة) وقال لنفسه أظن أنها كانت تود أن تعيش تلك اللحظة وتختار لي كل شيء ولكن سني لا يسمح بذلك. سوف يراها الجميع ابنتي وليست خطيبتي، أخشى أن أتعرض لتلك المواقف كثيرًا، ولكن لا بدَّ أن أقبلها حتى لا أحدث في اليوم ألف مشكلة ومشكلة.

عيناه منبهرتان بموديلات الحُلل التركية والإيطالية وفخامة المكان الذي كان يقف خارجه طيلة عمره، استدار برأسه إلى مكتب إدارته فوجد شابًا صغيرًا، فوقه صورة مكبرة للرجل الذي كان يخرج رأسه من خلف الزجاج ويقول له تفضل بالدخول.

نهض من كرسيه وسأل ذلك الشاب عن صاحب الصورة المعلقة فوقه، فأخبره بأنه توفي بأزمة قلبية في العام الماضي، تأثر (صابر) لسماع ذلك الخبر وهمس قائلا: رحمه الله كان بشوشًا ومضيافًا، كنت ألمح في عينيه الطيبة وشعرت أنه ذات مرة ودَّ لو يقول لي تعال والبس ما تشاء بدون حساب.

دمعت عين الفتى وأغمضها وجز عليها حتى لا يصل إلى البكاء أمامه، سأله: هل أنت ابنه؟

- نعم إنني ابنه الوحيد ولا أخفيك معاناتي بعده!

ربت (صابر) على كتفه في حنان قائلا: لا تحزن اعتبرني والدك وأعدك بأنني كلما مررت من أمامكم ترحمت على والدك واطمأننت عليك فأنت بمثابة ابني.

استحلفه الشاب بأن ينجب أبناء آخرين ولا يكتفي بما أنجب، فالوحدة قاتلة والحياة بدون أخ كالمحارب في المعركة بدون سلاح أرجوك لا تظلم ابنك من بعدك.

لو كان يعلم الشاب أن تلك الكلمات بمثابة دانة مدفع يقذفها صوب قلب الرجل الحكيم لكان استشعر فداحة ما يقول. فليس كل ما نشعر به ينبغي أن نقوله دون علم بحال من يسمعه.

تمالك (صابر) نفسه وربط جأشه وأخذ الحلة من يد البائع بعدما قصر منها الزيادات، وفي حين كان البائع يفتح أزرار القميص ويخرج رابطة العنق من علبتها قام (صابر) بشد القميص ورابطة العنق من يده ووضعها تحت إبطه ودفع ثمن مشترياته وهو صامت وتوجه ناحية الباب لينصرف.

تعجب البائع وقال له إنك لم تقس الحلة كاملة بالقميص ورابطة العنق، هل أنت واثق من تمام مقاسها؟

وقف (صابر) للحظات ممسكا بالباب الزجاجي ومعطيا للبائع ظهره، فلم يوله اهتماما ولم يعطه ردا وانصرف بعدما شعر بصدره يتمزق من ضيق ما سمع من الشاب.

همهم البائع وقال ناظرًا إلى صاحب المحل: إنه لرجل غريب، لم أرَ زبونَا تائهًا وغير مبالٍ مثله.

عاد إلى محله ليطمئن من البائعة التي تعمل عنده على تجارته وسألها، كيف حال الدرج اليوم يا (سميرة)؟ أجابته بأن الأمور على ما يرام ولكن النواقص صارت كثيرة .

- لن أقدر على فعل أي شيء في هذه الأيام ثم نظر لها وابتسم قائلا: العقبى لك! سوف أتزوج.

أجابته بوجه صلد متخشب أخشى أن أبارك لك اليوم وأنعاك غدا.

فوجئ من قولها الصادم وقال لها: ماذا تقصدين؟

أجابته إن الحارة كلها جعلت منكما حكاية طريفة وسخرية على كل لسان، واسترسلت قائلة حتى الزبائن اليوم قد جاؤوا ليسخروا قبل أن يشتروا، فقد سمعت اليوم كلمات لو كنت مكاني لذهبت محمولا على ناقلة إلى المستشفى.

تغير وجهه وتبدلت ملامحه: معقول! يحارب الناس شيئًا شرعه الله ويوقعون بين الأحبة ليفترقوا لأن ما يجري على غير هواهم!

يا لبشاعة البشر ... يا لبشاعة البشر!

وأخذ كيسته التي بها الحلة وانصرف غاضبا متجها إلى بيته.

وقف (صابر) أمام حوض المياه بشقته يسكب الصبغة السمراء في طبق بلاستيكي أسود صغير وأخذ يقلبها بفرشاة حتى تماسك قوامها وراح يصبغ شعره الأبيض ويداوي الأماكن الفارغة ويصبغ أرضيتها.

وقال لنفسه لطالما كرهت أن أغير لون شعري وأن أظهر بعكس حقيقتي إلا أن الفارق بيننا كبير وملحوظ. لا بدَّ أن أتصابى على الأقل ولو لليلة الزفاف فقط. ثم هز رأسه وعض على شفتيه من الغيظ وقال: والله لأتزوجها رغما عن أنف الحارة وأحرق أكبادهم الحاقدة من بلوغي فتاة رفضت كل المتقدمين لها من السوق.

أعد معجون الحلاقة ولطخ به لحيته المختلطة بالشعر الرمادي والأبيض وحلقها عن آخرها بالموس. ارتسمت على ملامحه ابتسامة بلهاء وهو يقول: قد نسيت والله أنني بشر يفترض بي أن أعاشر امرأة ثم ألقى بماكينة الحلاقة باستهتار على الحوض وشد منشفة الوجه ومسح وجهه وقال بغضب: غريب أمر الناس لا يعجبهم حال أحد إذا أضربت عن الزواج أساؤوا إلى شرفي وإن قدمت على الزواج انتقدوا

اختياري، لقد عشت خمسين عامًا سمعت فيها حكايات وأهوال عن حياتي لم أفعل خمسة بالمئة منها! يا إلهي إلى هذا الحد نحن فارغون، إنها مأساة كبرى أن يحكم الإنسان لسانه قبل عقله وأن تكون أحكامه ومعاينته وانشغاله بأحوال العباد أكبر من التفكير بحاله. ثم ألقى منشفة الوجه بعبث على سريره وجلس أمام حوض السمك يلقي له الطعام وقال للسمكة الذكر زرقاء اللون هل معشر الأسماك مثلنا يا صديقي؟ يشغلهم أمرك متى تتزوج ومن تصادق وكم ربحت ومن أين أتيت بمال بضاعة محملة على عربة نقل كبيرة؟

ثم أغمض عينيه مسترسلا في أسئلته التي نغصت عليه أيامه.

هل يعدون عليك طعامك الذي تأكله؟ هل حسدتك سمكة سمراء على زرقة لونك وذيلك؟ هل استكثروا عليك نعم الله التي لا حيلة لك في خلقها؟

صمت قليلا دون أن يسمع إجابة من السمكة، ثم قال: أعتقد أنك تفهمني، وأنا على ثقة أنك أشفقت عليَّ وقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله جنَّ الرجل، أفقده الناس عقله.

أتدري، أنا أحسدك على أنك لست بشرًا، التفتت السمكة في الماء وصوبت عينيها ناحيته كأنها توحي له بالاهتمام لما يقول.

والله أحسدك على أنك لست بشرا مثلي، إن أكبر همك ألا تموت في أحشاء سمكة أضخم منك، بينما الإنسان لا يدري من آكله أخوه أم غريب، قوي أم ضعيف، بعيد أم قريب. فكل الاحتمالات واردة ثم أغمض عينيه وقال بنبرة عميقة صادمة:

سامحني لقد أوجعت رأسك، لكنك الوحيد الذي تسمعني، فإخوتي قد ملوا أحاديثي المثالية يقولون لي هذا واقعنا فلتعش فيه وتألفه حتى تستمر.

أستمر! إنها كلمة عظيمة إذا استمر الإنسان على مبادئه وثوابت إنسانيته، أما غير ذلك فإنها سوف تصبح كلمة ملعونة وقميئة وقبيح صاحبها الذي مشى في درب مليء بالأوبئة ليستمر.

ألقى بظهره على السرير ونام بجانبه وعينه تجاه حوض السمك مسترجعًا شريط حياته: كنت شابا عنيدًا فتيا في السوق إذا تحداني تاجر

أو صبيه من مفترشي الأرض صرعته وصمدت أمامه حتى يمل ويرحل عني.

كنت واهما أنني عندما أروضهم سوف أصبح آمنا في محلي وسوف تكبر تجارتي بغير عوائق، إلا أنني اكتشفت أن الذئاب لا تروض وأن الابتسامات والقبلات والعناق الطويل أكذوبة تخفي وراءها كل أنواع الأسلحة التي تطعن فيك من الخلف حتى تصل إلى مرحلة الوخز فيك من الأمام وبشكل علني دون استحياء ومواربة. خلاصة القول لا يردع الذئب إلا النار.

انتبه (صابر) من غفلته على صوت أغانٍ فولكلورية تدار في مكبرات صوت عملاقة محمولة على عربات ربع نقل، قام من سريره مندفعًا من الاستياء وتوجه إلى الشباك ليوبخ الحمقى المزعجين على عدم احترامهم الشارع وساعة النهار الهادئة، دفع شباك غرفته بعنفوان وقبل أن ينبس بكلمة رأى الحاج (أحمد) والد العروس واقفًا متكئًا على سيارة نقل كبيرة عليها أجهزة كهربائية ثلاجة وغسالة وجهاز تلفزيون

مسطح...، وخلفه ثلاث عربات مثلها محملة بأثاث ومتاع وأغطية وستائر زاهية...

ما هذا كله! إن الشقة لا تتسع لعزال يكفي ثلاث شقق يا إلهي. هل هذا الرجل مجنون!

أغلق الشباك، ثم خلع بيجامته على عجل وارتدى سروال ترنج وفوقه قميص، وفي أثناء تعطره رنَّ جرس الباب.

جرى إلى الباب وفتحه وقبل أن يقول مرحبًا وجد ثلاثة رجال يحملون ثلاجة كبيرة وقد صاحوا في وجهه: افسح لنا الطريق.

أربكته المفاجأة؛ حتى ظهر أمام العتالين بطيء الفهم غبي العقل، وبدا لهم في حال أن اعتمدوا عليه فسوف يقضون يومًا كاملا في تفريغ سيارات عزال(رئيسة) بنت الحاج أحمد.

أنزل ثلاثة الرجال الثلاجة على عتبة الباب، ثم دخلوا الشقة ليفسحوا المجال لأنفسهم حتى ينجزوا وقتهم ولا يضيع يومهم على حمولة زبون واحد.

عادوا إلى الثلاجة مجددا وبمجرد أن حملوها حتى هرع من خلفها نساء وشباب وأطفال يحمل كل منهم شيئًا من العزال في يده.

تهكم(صابر) عليهم: ما هذا مهلا الشقة ممتلئة عن آخرها! لم يردوا عليه ولم ينظروا ناحيته وكأن احتلالا جديدًا قد وصل إلى القاهرة واتخذ من شقة (صابر) مقرًّا.

ظهر الحاج (أحمد) بعباءته الوقورة وخلفه (رئيسة) بعباءتها السمراء المطرزة بالفصوص الفضية كي تشرف على تجهيز شقتها.

عانق الحاج (أحمد) (صابر) وهو في حالة ذهول مما يدور حوله، ملقيا ببصره على عروسه بشغف ووله. همس في أذنه: تعال نجلس في القهوة التي أمام البيت ودع النساء والشباب يرتبون كل شيء فهم أدرى بأمورهم.

لم ينبس بكلمة وتحركت قدماه وهو محملق العينين لا يدري أكان حلما ما يراه أم حقيقة!

طلب الحاج (أحمد) كوبين شاي ثقيل من الساعي، ومرافقه صامت يراقب العربات المحملة محدثًا نفسه: كيف لكل هذا العزال أن يدخل شقتي.

سأله الحاج (أحمد) أراك مأخوذًا مصفر الوجه، اضحك يا رجل لم يتبقَ سوى يومين على الليلة الكبيرة.

التفت له (صابر) وسأله مستنكرًا: ما هذا العزال كله؟ إنه يكفي ثلاث زيجات لشاب صغير مقبل على الزواج؟

ارتسم على وجه الحاج(أحمد) الغرابة: ابنتي الوحيدة يا رجل هل أبخل عليها بشيء؟

ليست القضية في البخل... لم أقصد ذلك!

- هل تود أن ترى ابنتي أنها أقل فتاة في الحارة؟
- هذا لم يزدها في أعينهم أو ينقصها.
- والله والله لأجعلن أهل السوق كله يتحدثون طول العمر عن فخامة عزال (رئيسة).

قال (صابر) في نفسه: يا لضآلة تفكيرك إنني أتكلم في وادٍ وأنت في وادٍ آخر.

خرج أخوة (صابر) وأولادهم من شرفاتهم ينظرون العزال، كلٌ من طابقه وشقته.

همس الحاج (أحمد) في أذنه قائلا: هلا طلبت أبناء أخوتك للمساعدة في رفع العزال كي ننتهي سريعًا قبل أن يفتح باقي التجار محلاتهم ومخازنهم ويستاؤون منا.

أجابه: نعم إنها فكرة، نهض (صابر) من كرسيه ورفع رأسه ناحية الشرفات وتهيأ للحديث وقبل أن تنطق شفتاه حرفًا هرعوا جميعهم إلى الداخل وأغلقوا الشبابيك خلفهم.

كان موقفا غاية في الإحراج! حاول (صابر) أن ينهيه بمزحة فقال يبدو أن سعادتهم بزواجي أربكتهم فاختبؤوا من الفرحة.

ضحك الحاج (أحمد) وقال لا عليك سوف تقوم نساء عائلتنا وشبابها باللازم.

مرت الساعتان ونصف في حمولة العزال وبدأت النساء والشباب في النزول إلى ظهر العربات مرة ثانية ليرحلوا بعدما تورمت أقدامهم وتحجرت قطنيتهم من النزول والصعود إلى الطابق الخامس.

ظهر طفل يحمل كيسًا به ماء وسمكتين ملونتين وحوله طفلان يكبرانه في الطول يساومانه على شرائهما منه أو تبديلهما ببرطمان بلي أو لعبة مسدس، فقال الحاج (أحمد) وهو جالس أمام شيشته: الله ما هذه الأسماك الجميلة! من أين حصل عليها هذا الصبي العفريت!

التفت (صابر) بسرعة البرق ناحية الطفل واندفع من مقعده وهو يصرخ: "يا ولاد الكلب"!

الفصل الثالث

طبعت كروت الدعوات ووزعت عصر يوم الخميس ونصب المسرح وعلقت أفرع الأنوار وفرشت الكراسي واستعد الحي والسوق لحضور الزفاف المنتظر في مساء يوم الجمعة.

صعد إليه شقيقه (رشدي) فوجد الباب مفتوحًا وعنده الحلاق يساوي له شعره ويضع على وجه المرطبات وماسكات التفتيح، ويجلس خلفه عم (حنا) رفيق عمره وصاحب رحلة كفاحه. قال له بصوت شخص مجبور على المجاملة، متأذيا من الحضور، سيارتي جاهزة لزفافك قد زينتها لك بالورود والكرانيش، التفت إليه (صابر) بوجه مخفي تحت المرطبات سوى عينيه وأنفه قائلا: ولِمَ التعب يا شقيقي، ثم استدار برأسه إلى الحلاق وقال له بسخرية هذا أخي سندي وظهري، اعتاد الظهور دائما في نهاية كل مشكلة ومعركة، ثم تابع سخريته

موجهًا كلامه لعم (حنا): هل رأيت كلمة النهاية التي تظهر عقب انتهاء الأفلام؟ فقال له كاتمًا ضحكاته: نعم أراها.

- إنه أخي، مثل كلمة النهاية في كل فيلم.

عض (رشدي) على شفتيه ورفع حاجبا ودلى الآخر وقال هل أنهيت توبيخك لي؟

- والله لم أنتهِ، إنكم مجرد صورة بلا روح وعدد بلا فائدة، أنتم أخوة على ورق.

ثم أزاح يد الحلاق عنه بقوة ونهض من كرسيه وصاح في وجه (رشدي) : ألم تسمع صوت عربات العزال؟ ألم يزعجك الصاعدون على السلم عشرات المرات كي ينقلوا عفش شقة أخيك؟ ألم تستحِ من نفسك فتظهر مرة واحدة من أول الفيلم أو على الأقل من منتصفه!

ثم أخذ نفسًا عميقا وأعطاه ظهره وقال ناظرًا إلى صديقه: إنه حتى لم يأمر أحدًا من أبنائه ويقول له قف مع عمك فقد وقف معنا كثيرا.

يا إلهي لم أكن أتخيل أنني رويت التربة البور وانتظرت منها أطيب الثمر.

تأثر الحلاق البالغ من العمر أربعين عامًا وذرفت عيناه الدموع، واستنكر (حنا) غياب مشاعر الأخوة ولكنه آثر الصمت وفضل ألا يتدخل بين الأخوين. ربت (صابر) على كتف الحلاق قائلا: إذا كنت أنت الغريب بكيت وصديقي ممتعض يود أن يسب أخي من الغيظ لكنه متمالك أمامي، فما حالي وأنا المتروك والمهمل بعدما راعيت واهتممت.

استدار (رشدي) وهو غير قادر على أن ينبس بكلمة يبرر بها ما قاله أخوه وقبل أن يتخطى عتبة الباب قال لـ(صابر) بصوت مخزٍ يملؤه العار سوف أنتظرك في السيارة حتى نلحق بالعروس في الكوافير.

هدأه الحلاق وقال له: دع الأمور تمشي بسلاسة يا معلم (صابر)، لا تعكر صفو ليلة عمرك، هز رأسه: سوف أحاول.

غسل شعره ووجهه وارتدى حُلة زفافه كاملة. رفع الحلاق حاجبيه وقال اللهم صلِ على النبي، والله أخشى عليك من عيون أهل السوق السامة ونفوسهم المريضة. ضحك (صابر): مالك يا رجل لقد أربكت رأسي هل أترك الأمور ولا أشغل رأسي أم أتوارى وأحذر من عيون الناس. اختر لك نصيحة واحدة، لا تكن متناقضًا.

ضحك الحلاق وقال لا تعاتبني على عفويتي يا معلم. فقط اقرأ المعوذتين قبل أن تصعد على الكوشة فإني والله أحبك وأخشى عليك.

نظر (صابر) إلى صديقه العجوز: هل ستظل ناظرا إليَّ دون أي تعليق أو كلمة مبروك، أجهش (حنا) بالبكاء وقام يعانق صاحبه متكئًا على عكازه: حبي لك أقوى من أي كلام أنت مثل ابني لا يفرقنا إلا الموت.

قال (صابر) له ممازحًا إن أعماركم أطول من أعمارنا، ثم نظر إلى الحلاق وقال له ألم تلحظ ذلك؟

ضحكوا جميعا فقال (حنا): عاهدتك في السخرية ليس لك مثيل.

نزل (صابر) وخلفه الحلاق وصديقه (حنا) وركب بمفرده بجوار أخيه في سيارته وانطلقوا ليحضروا العروس من الكوافير.

ظل (رشدي) صامتًا متوجسًا خيفة من أن يسمع ما لا يسر أذنيه.

قطع (صابر) الصمت المخيم عليهما وسأله عن أخواته البنات، أجابه على عجل بأنهن قد اشترين ملابس جديدة ومناسبة لهذه المناسبة المهمة في حياتهن.

ابتسم بسخرية وهم بالتعليق على جملة "مناسبة مهمة في حياتهن" فتذكر قول الحلاق له فتراجع عن قول شيء يعكر صفو يومه وقال في نفسه لا داعي للتعليق يكفيني أنني أفهمهم جيدا.

وصلا أمام الكوافير وظلا منتظرين ساعتين من الزمن حتى ضاق صدر (صابر) وبدأ في الانفعال والانتقاض بداخل السيارة. فتح باب سيارته ومشى خطوات عنيفة ودفع باب الكوافير ففزعت النساء وأحدثن ضجيجا كاد أن يصل إلى الصراخ، انتفضت مديرة الكوافير وقالت له ما الذي تفعله يا رجل انتظر في الخارج ولا تدخل على النساء بهذه الوقاحة.

عن أي وقاحة تتحدثين يا امرأة، ساعتين حتى تخرج العروس إلى زوجها، هل ستخلقينها من جديد؟

- يا إلهي إنك غير طبيعي!

سمعت (رئيسة) صوت صياحه وهمت من مقعدها بشعرها الغارق في حمام الزيت. فاعتذرت للمدام (شيرويت) مديرة المكان: اعذريه فهو زوجي واستشعر القلق عليَّ لا أكثر.

نظرت له بتمعن ثم عاودت النظر إليها ثم انسحبت إلى الوراء وجلست على مكتبها.

نظرت (رئيسة) له في حُلَّته البهية وهو صابغ الشعر وحالق الذقن قائلة له بقلب مرتجف: إنك تشبه نجوم السينما ولو أن لي عتابًا على حلاقة ذقنك فقد كنت أحبها كثيرا.

تبدلت ملامح (صابر) تدريجيا من العبوس إلى البشاشة ونظر في عينيها وهام بها للحظات وقال بصوت عذب ووقور سامحيني إنني مضطرب قليلا، أريد أن نقفل علينا بابنا في أسرع وقت.

زاغت عينها من عينه الناصعة بالذكورة والمهابة وقالت وهي تضحك: انتظر قليلا سوف أخرج لك حالا. واستأذنته أن تغلق باب المركز حتى لا تنزعج النساء بالداخل.

استدار بجسده ناحية سيارة أخيه ووضع يده في جيبه ونظر إلى السماء وهو يقول: يا إلهي إنها مثيرة قبل أن تنهي مكياجها وشعرها فكيف حالها بعد أن تخرج. ثم تذكر نصيحة الحلاق الثانية له، وقال يبدو أن الحلاق كان يعرف مسبقًا أن عيون الناس سوف تخترق صورنا وأجسادنا، لا بدَّ أن أتذكر قول المعوذتين قبل أن أصل إلى الكوشة.

نزل أخوه من سيارته وراح ناحية (صابر) وقال له: هن لسن مثلنا في عشر دقائق نكون على أتم استعداد لأي مناسبة، النساء تعشق التفاصيل والدقة وهن دائمات التردد والحيرة بين الألوان المتشابهة والمتداخلة، ثم ضحك وهو يقول اسألني أنا عنهن فقد فرغ صبري من تحمل العيش مع امرأة تحت سقف واحد، وصراحة فإنني أخشى أن تندم على قرارك هذا وتشتاق لساعة واحدة بدون مسؤولية،

بدون خذ معك وأنت نازل واجلب لنا وأنت صاعد. والله يا أخي لولا الأولاد لكنت طلقتها وعدت إلى مرتع العزوبية.

ابتلع (صابر) ريقه وشعر بغصة وريبة من كلمات (رشدي) والتفت وراءه ناحية باب الكوافير ودعا الله أن لا يجعل زواجه شقيا وتعيسًا.

فتح باب الكوافير وخرجت منه (رئيسة) وطغيان حضورها ألقى بسهم نافذ في قلبه، ذلك الرجل الذي عاش طيلة حياته يتمنى أن تنام بجانبه امرأة يفضي لها وتفضي له يسامرها وتسامره. أن تستقبلك روح جميلة على مشارف بيتك وتعانقك باشتياق ولوعة، ذلك شعور يرغبه كل إنسان.

وقف (صابر) وبجانبه (رشدي) لا ينبسان بحرف ولا يتحرك لهما جفن من جمال ما يرونه، استشعر(رشدي) أن (رئيسة) قد فاجأتها نظراته المتمعنة فيها فصرف نظره بسرعة، وبدهاء دفع أخاه مشجعًا: اذهب وخذها هي تنتظرك لا تنتظرها أنت.

فتح فمه وقال هاه ... حاضر ... حاضر ... سأذهب.

مشى ناحيتها وقبل أن يصل أمامها بمتر واحد هرع أقاربها حولها وبدؤوا في الضجيج بالمزامير والطبل وطلقات النار الصوتية من مسدسات شباب عائلتها.

أخذ يطرق على ظهر كل صبي وشاب وامرأة حتى يفسحوا له المجال كي يصل إلى عروسه، أخذها من يدها وخرج من بين الجمع حولها وركبا سيارة زفافهما.

وبجرد أن جلسا بجوار بعضهما سألها: لماذا أقاربك النساء الواحدة منهن بحجم ثلاثة رجال بنحافة أخي (رشدي)؟

لم تتمالك نفسها من الضحك: يعيشون على السمن البلدي والحليب الطازج من البهائم ويأكلون طيور البط والإوز بشكل شبه يومي.

ذكر لها أنه خشي أن يرتطم بلحم امرأة بارز من الخلف وهو يفادي الملتفين حولها فتتهمه بالتحرش وتضعه في موضع محرج أمام الناس.

ثم قال مازحا: آمل أن لا تصبحي مثلهم يومًا ما. ابتسمت وهي تقول له بثقة: لا تخف إنني لست أكولة وأحافظ على صحتي دائما.

كانت سيارات أقاربها ودرجاتهم البخارية تسير في موكب العرس والأغاني الشعبية الفرحة حولهم وهو ينظر لهم بتعجب وغرابة.

مال على أذنها حتى تسمعه وسط ذلك الضجيج وسألها مجددًا: لماذا أقاربك كثيرو الإنجاب بهذا الشكل! ثم أردف في الوقت نفسه: آه صحيح تذكرت من أكلهم البط والإوز والحمام واللبن الطازج. ثم ضحك وهو يقول إنهم حقًّا أسر منتجة.

رفعت (رئيسة) حاجبيها وتجهمت ملامحها ولم تضحك من انتقاده المستمر لأقاربها ولكنها حاولت أن تبدو هادئة ولطيفة.

وصلوا إلى استديو التصوير ليلتقطوا الصور التذكارية والخالدة كما يتصور الجميع في تلك المناسبة بأنها اللحظة الأبدية والسعيدة التي لن تتكرر مجددًا.

كان (صابر) يقظًا لكل تصرف وإيماءة تصدر من المحيطين حوله، لمح اثنين من موظفي حجز الصالة يتهامسان ويكتمان ضحكاتهما بأيديهما ويربطان على بطونهما من شدة كتمان الضحك. فنهض من مقعده وتوجه إليهما وسألهما وهو مستعد لصفع أحدهما على وجهه براحة يديه: ما الذي يضحككما؟ ونظرات عينيه مشتعلة عن آخرها! انتبه إليه أحدهما وقال له: نحن نضحك على زميل لنا مغرور ومتعالٍ علينا بخبراته الوظيفية؛ أتلف فيلما أثناء تحميضه فخُصم من راتبه ثلاثة أيام وأشار بإصبعه إلى صاحبه المقصود.

نظر (صابر) بمد بصره إلى الشاب المشار إليه ووجده بالفعل حزينًا وممسكا برأسه وغير مصدق لما حدث له.

بدا على (رئيسة) التوتر من تصرفات (صابر) وسألته عندما عاد وجلس بجانبها: ما الأمر لماذا ذهبت إليهما؟

- لا شيء، قد ظننت فيهما سوءًا لكنهما لم يقصداني بضحكاتهما.
- أرجوك يا (صابر) كن هادئًا ولا تربط كل تصرف عبثي حولك بأنه مسلط عليك ومقصود به إهانتك أو السخرية منك.

قبض على يديها براحة كفيه قائلا: كوني بجواري فأنا متوتر ورأسي ليس في محله الآمن والهادئ كل الأفكار الخبيثة والشريرة تهتاج في عقلي.

ربتت على ظهره وقالت بصوت هادئ ومسالم استمتع بيومك وبليلة عمرك فليس لتلك الليلة إعادة.

ضحك ناظرًا بعينيه إليها وقال: أريد أن أقبلك.

أدارت وجهها عن عينيه مستحية ثم طأطأت رأسها وقالت له لقد صبرت طوال خمسين عامًا وكنت فظًّا وعنيفًا مع كل النساء وجئت الآن ولن تستطيع أن تصبر ساعة واحدة حتى نكتب الكتاب.

قطب حاجبيه وعاد بظهره إلى الوراء مندهشًا: إلى هذا الحد كانت سمعتي في السوق بتلك الغلظة.

تداركته بسرعة حتى لا يفهمها بشكل سيئ واقتربت من خده الأيسر شارحة له أن غلظته مع نساء الحارة جعلتها أكثر الفتيات لهفة على الفوز بقلبه وحيائه وعفته.

نادى عليه المسؤول عن تنظيم وترتيب الصالة ولوح لهما فقد جاء دورهما لالتقاط صورهما، قام الاثنان وأخذا وضعية التصوير وكان المصور بعمر (صابر) ولحيته البيضاء كاسية وجهه وحاول جاهدًا أن يخرج صورة رفيقه في الشيب ناصعة ومميزة، همس في أذنه وقال له: يا محظوظ فابتسم له وهو يعلم ماذا يقصد، ثم واصل المصور قوله هل لديها أخت أو واحدة من أقاربها بنفس عمرها؟ أريد يا صاحبي أن أستمتع في الأيام المتبقية من عمري. وفي أثناء ما كانت (رئيسة) تراجع هيئتها أمام المرآة همس له (صابر) وسأله مرتبكًا: هل تعتقد أن تلك التجربة سوف تنجح؟ حدق المصور ببصره في عينيه وقال له يخيل لي أنها زيجتك الأولى؟ أجابه نعم هي كذلك.

ممم... حسنا... سوف تعاني قليلا لكنك سوف تنجح، ثم تابع قوله: لو كانت زيجتك الثانية بفتاة صغيرة مثلها لكانت فرصة نجاحك أقل. أصحاب التجارب السابقة يدخلون في دائرة المقارنات حتى لو عزموا الابتعاد عنها، إنها طبيعة البشر. فما دمت لم تجرب من قبل فكل

شيء سوف تكتشفه ستجاهد نفسك على التأقلم معه. وربت على كوعه وقال له ثق بنفسك ولا تجعل رأسك تربة خصبة للهلاوس السلبية حتى لا تخسر نعيم راحة البال، ثم أخرج من جيبه شريط حبوب منشطة وقال له لا بدَّ أنك تحتاج إليها في ليلتك.

ضحك (صابر) بسخرية ولم يمد يده ليأخذه وقال له: من الواضح أنك لم تجرب الخلطة الهندية بعد!

عادت (رئيسة) إلى كادر الكاميرا مرة أخرى. أعاد المصور الشريط إلى جيبه قائلا: هيا ارجع إلى عروسك الجميلة حتى نأخذ اللقطة التالية.

أخذ المصور عشرات اللقطات بكادرات وأوضاع مختلفة وقال لـ(صابر) وهو خارج من أمامه لا تنسَ ثق بنفسك إلى النهاية.

ثم تذكر أنه سمع الخلطة الهندية من (صابر) ولم يعرف مكوناتها، حاول أن يلحق به وهو على أعتاب الخروج من باب الاستديو ولكنه لم يلحقه، فقد تحركت سيارة الزفاف قبل أن يصل إليه.

وصل إلى مسامع الجالسين على مقاعد الزفاف صوت زمارات سيارات الزفاف وبدا في السماء لهم ألوان طلقات الخرطوش والألعاب النارية.

دخل موكب الزفاف إلى أول السوق وسط مطالعة أهل الحارة إلى تلك الزيجة المنتقدة من الجميع.

خرج (صابر) و(رئيسة) من السيارة ومشيا معًا صامتين مضطربين من نظرات الحضور الثاقبة إليهما، ربطت (رئيسة) على مرفقه وربتت بكفها الآخر عليه وكأنها تطمئنه وتعزز بداخله الثقة والثبات.

خطت قدماهما أول درجات المنصة المثبتة في وسط الشارع، لمح بعينيه صديقه الحلاق متأثرًا يمسح دموع فرحته فتذكر وصيته بقراءة المعوذتين قبل أن يصل إلى الكوشة فتمتمهما على عجل وهمست (رئيسة) مستعيذة من العين والحسد والسحر.

لوَّح (حنا) بيده إلى (صابر) وهو جالس في الصف الأول وابتسما بعضهما لبعض ابتسامة تملؤها المحبة والسلام.

بدأت مراسم الزفاف والمباركات وهب الجميع من مقعده ليرقص ويمرح.

وكان للحارة قانون وللسوق عرف "إذا دقت الطبول وغردت المزامير وأُعدت الولائم فلا كراهية ولا انتقاد ولا خصومة ولا منافسة ولا صاحب محل يعترض ولا ساكن في بيت يبدي انزعاجه فالجميع مدعو وإن لم يُدع، فترى أهل الحي يتهافتون على المباركة ويتزاحمون في رد النقوط وبذل الهدايا والتقاط الصور"

استمر الحفل إلى الصباح وزال توتر (صابر) شيئًا فشيئًا والتف حوله على الكوشة أخواته البنات، وحمل أولادهن المشروبات الغازية وأطباق الطعام ووزعوها على الطاولات أمام المدعوين، وفوجئ بمنافسيه وقد حضروا الزفاف، بالرغم من أنه لم يدعهم وتعمد تجاهلهم. حملوا معهم صناديق البيرة وصواني الترمس كواجب لا يرد فتهافت المدعوون على الصناديق وشربوا حتى الثمالة ورقص كبار التجار والمعلمين بالعصا مع العروس (صابر) وتبادلوا العناق والضحكات وكأن شيئًا لم يكن وكأن أمرًا لم يعترض عليه أحد.

وقبل أن يُرفع أذان الفجر بساعة نهض العروسان وزفوا بالطبل البلدي والمزمار الصعيدي إلى أعتاب منزلهما وقضت الحارة سهرة على حس (صابر) لا تنسى.

رفع من على عينيها السترة البيضاء وقبل جبينها وعانقها بعد خمسين عامًا من الوحدة والعزوبية، في ذلك العناق مرت من أمام عينيه كل اللحظات التي بكى فيها وحيدًا دون أن يعانقه أحد، تذكر لحظات هجوم شهواته الضارية عليه دون أن يفضي إلى أحد وكان يضطر أن يفضيها بيده. تشجعت هي الأخرى وعانقته عناق الفتاة التي كانت تحلم بأن يفض عذريتها رجل ناضج وعاقل وحكيم، تذكرت جميع الشباب الذين أبدوا استعدادهم لدفع الغالي والنفيس حتى ينالوا بكارتها لكنها كانت ترفض وتكابر وتصر على نيل أحلامها كما هي دون تنازل أو تساهل.

سمعت أنينه وأنفاسه المحترقة بجانب أذنيها فلم تقدر على التماسك حتى بكت هي الأخرى.

تلك الدموع ليست دموع حزن على ما فات ولا فرحة بما هو آت إنما كانت الدموع نابعة من نفوس قد راودها اليأس مرارًا في أن تحيا كما يحيا الناس، وأن يمارسوا الجنس كما يمارسه كل كائن حي، وأن يجدوا يدا ملساء تمشي على ظهورهم وأردافهم تهبهم نشوة الاستسلام والسلام.

إن العبء الأكثر ثقلا على الإنسان هو أن يجد لذته بشكل مشروع وغير محرم. ويظل الإنسان يعيش طيلة حياته يبحث عن أعلى معدل لها، وكلما أتى منها بجزء رغب في جزأين، وكلما وصل إلى نهاية شيء يعاود البحث عن طريق آخر ليبلغ آخره، ولولا تلك الغريزة التي هي من صميم تكوين البشر ما كنا سمعنا عن وفاة أحد الأشخاص جراء تعاطي جرعة هروبين زائدة رغبة منه في الفوز بأقصى درجة من اللذة. ولا كان الرجل منا قد شعر بعدم الاكتفاء بزوجته حين ينظر إلى أجساد النساء الأخريات اللاتي ربما يكون جسد زوجته أفضل منهن، ولا كانت جدتي قد أصيبت بأمراض المعدة والقولون والمرارة والسكر

وارتفاع ضغط الدم من شهيتها وسمنتها المفرطة. في الحقيقة إن كون الإنسان لا يشبع؛ هي إحدى مهلكاته ومقصفات عمره.

الفصل الرابع

قضى العروسان شهر عسل بالغ الجمال فقد سافرا إلى الإسكندرية كعادة أغلب التجار ليقضيا فيه شهر عسلهم ومصيفهم، مكثا في لوكاندة متواضعة على الشاطئ بميامي، حاول (صابر) أن يكون شابًّا أمامها فجرى خلفها على الشاطئ ورشها بالمياه وركبا الحنطور وهما يأكلان الأيس كريم ويتبادلان إطعام بعضهما بعضًا، وفي أثناء ما كان مرتميا في أحضانها همست في أذنه قائلة: أحبك أكثر من نفسي.

أفضى سائله ونهض من عليها وقطم تفاحة كانت أمامه على الطاولة ونظر لها بعطف وقال أخشى أن يأتي وقت عليك وتندمين فيه على زواجك من رجل مسن مثلي.

قامت من سريرها وارتدت سترتها الشفافة وهمت به تحتضنه من ظهره وقبلت خديه معترضة كلامه: يستحيل أن يحدث هذا. ثم سألته

هل تعتقد أنني كنت عانسا ولم يأت لبيتنا غيرك فقبلت بك مضطرة غير محبة؟

أجابها لا... فقد سألني عنك خُطاب كُثُر قبل أن يتقدموا إليكِ فترفضينهم.

بَصَمَت بشفتيها قبلة طويلة على رقبته وقالت: إذن أنا اخترتك وحتمًا لن أندم.

التفت إليها بوجه وفك سترتها وتركها تسقط على الأرض وحملها على الفراش مرة أخرى.

يا لك من مجنون.

نعم جننت بكِ.. غريبة أنتِ كل الإجابات المحيرة التي تجول بذهني تضعين لها إجابة حتمية ومنطقية.

ابتسمت وهي تعانق رأسه بين ذراعيها وقالت... إذا كانت كل إجابة منطقية على خواطرك ستكون مكافأتي عليها حضنك ومعاشرتك، فسوف أفكر مليا في إجابة كل سؤال حتى لا أدعك لحظة خارج جسدي.

قررا الذهاب إلى السينما، كانت الأفلام الثلاثية الأبعاد صيحة جديدة في مجال الميديا، زحام وتهافت من المتفرجين على قاعات العرض.

استطاع (صابر) أن يحجز مقعدين بسينما أمير بمنطقة محطة الرمل الشهيرة بالإسكندرية في سهرة الثانية عشرة ليلا في ليلة يوم الثلاثاء نفسها للفيلم الأجنبي:

"Beowulf"

للنجمة الشهيرة أنجيلينا جولي

التي ألهبت الجماهير .

جلسا بجوار بعضهما محتضنين ذراعهما وارتديا نظاراتهما المخصصة لتلك النوعية الحديثة من الأفلام.

كانت (رئيسة) منبهرة لما تراه من التطور التكنولوجي في عالم السينما، بينما حاول (صابر) أن يخفي انبهاره ليرسخ بذهنها أنه من رواد السينمات والمطلع على كل جديد بذلك العالم.

جلست عائلة من أب وأم وولد في الثلاثينات من عمره بجوارهما ناحية (رئيسة).

ارتدت الأسرة نظارات الثري دي لمتابعة الفيلم. وفي فترة الاستراحة أنزل الشاب النظارة من فوق عينيه وشاهد (رئيسة) وهي تنزل من على عينها نظارتها.

يا إلهي ... معقول! "رئيسة"؟

سمعته أمه والتفت له قائلة بصوت خفيض... (رئيسة)! ما هذا الاسم الريفي العتيق؟

همس بأذنها: أخفضي صوتك لا تسخري من اسمها فهي تجلس بجوارك بجانب أبيها.

نظرت إلى يمينها فوجدت شابة في غاية الحسن والجمال.

وقف (صابر) وراح يشتري زجاجات مياه معدنية لاستكمال مشاهدة الفيلم.

أخرج الشاب رأسه من خلف أمه ونادى عليها (رئيسة)...

التفتت ناحية مصدر الصوت ودققت النظر في وجه الشاب وقالت بدهشة: (عصام)! يا إلهي لم أرك منذ أن تخرجنا في الجامعة.

ضحكت أمه وقالت بدهاء هذه بداية طيبة أن يتذكر الرفاق بعضهما.

ضحك (عصام) وقال لأمه: (رئيسة) كانت فاكهة الدفعة.

ضحكت (رئيسة) وانقبض قلبها خشية أن يستمرا في حديثها حتى عودة زوجها (صابر). قالت لهما بلطف شكرًا جزيلا على مجاملتكما لقد سعدت بلقائكما.

هم (عصام) أن يقول شيئًا فنظرت بعينها ناحية باب دخول القاعة تنظر إلى (صابر) العائد بزجاجات المياه وعبوات الكوكاكولا.

عاد (عصام) برأسه للوراء وشعر أنها تخشى من وجود أبيها بجوارها.

همس في أذن أمه: إنها ملاك تمشي على الأرض انظري إلى أدبها أمام والدها.

- نعم يا بني أنت محق فهي ذكية ومهذبة.

أظلمت القاعة وبدأ العرض مرة أخرى لاستكمال الفيلم، وارتدى الحضور نظارتهم وخيم الصمت على القاعة لمتابعة ذلك الفيلم العظيم.

ظل (عصام) متوترًا غير مرتاح فكان يخلع نظارته بين الحين والآخر لينظر إلى فتاة أحلامه في الجامعة. مال بفمه على أذن أمه وقال لها بمكر ألا ترينها فرصة لطلب يد (رئيسة).

خلعت أمه نظارتها هي الأخرى وظلت صامتة متفاجئة من ذلك المطلب الغريب: وما أدراك أنها ما زالت آنسة؟

أجابها بسذاجة وهل من فتاة متزوجة ترافق أباها إلى السينما بدلًا من حبيبها أو زوجها؟

صمتت قليلا تتدبر كلامه في ريبة ثم قالت له أخبر أباك بطلبك ودعه يفاتح أباها. لربما نخرج من تلك العتمة بعروس مناسبة لك بعدما أرهقتنا في اختيارك لشريكة حياتك.

طرح (عصام) رغبته على والده فخلع نظارته أيضًا ومال برأسه إلى الخارج ينظر إلى الفتاة وأبيها فوجدهما منهمكين في متابعة الفيلم.

أجابه أبوه حسنا دعنا نخرج من القاعة إلى النور وسوف أحدث لك أباها.

ثم عاود ارتداء نظارته وهو يهمس "لعله خير".

مضى الجزء الثاني من الفيلم وأضيئت القاعة وهم الجمهور بالانصراف بينما كان (صابر) يتهيأ للقيام من على مقعده فوجئ بوالد (عصام) يقترب منه ويطلب منه الحديث جانبا.

شعرت (رئيسة) بأن هناك كارثة سوف تحدث وبأن الشاب الذي كان لا يرفع حدقة عينيه من عليها أيام الجامعة قد ظن في زوجها بأنه ولي أمرها.

قامت من مقعدها مسرعة وأمسكت بذراع (صابر) وهي تقول لوالد (عصام) عذرًا لا أستطيع الابتعاد عن زوجي للحظات جانبية فقد عاهدته بأن أسير معه في كل طريق.

رفع الرجل حاجبيه في ذهول بعدما سمع ما أرادت (رئيسة) أن تسمعه. وفهم أنها تحاول أن تنقذه أو تنقذ نفسها فابتسم وهو غاية في الحرج ورجع بقدميه خطوة للوراء. لكن (صابر) لم يستوعب الأمر

وبادر هو الآخر بإنقاذ الرجل من الحرج فنظر لـ(رئيسة) برفق وقال لها دعيني أسمعه ربما الأمر يخص الرجال فقط دون النساء.

تنفست الصعداء وسحبت ذراعها من ذراعيه وجلست مكانها.

مالت والدة (عصام) على أذن (رئيسة)وقالت لها إنك غاية في الذكاء لقد أنقذتِ زوجي من علقة ساخنة.

لم تنبس (رئيسة) بكلمة وظل وجهها جامدًا حذرًا من أن يفهم (صابر) الأمر.

ثم استدارت السيدة ناحية ابنها وقالت له بعنف واحتقار: هل تظن أن الفتيات ساذجات مثلك سوف تقضي عمرها في الإعجاب والنظرات والإشارات الفارغة! ثم زغدته في فخذه وهي تقول يا لك من سفيه.

كان (صابر) غير مطمئن وملامح عينيه تزداد في الشراسة. قال للرجل ما الأمر الذي وددت أن تحدثني فيه جانبًا؟ هل تعرفني من قبل؟

تلعثم الرجل وتصبب عرقًا وجاهد لسانه في قول شيء مختلق وهمي.

فسأله بحياء: أريد أن أعرف منك كيف أستطيع أن أعود شابًّا مع زوجتي؟ رفع (صابر) حاجبيه وابتسم ابتسامة بلهاء فاستمر الرجل في سؤاله: هل تستخدم دواء معينا أو وصفة بعينها تعيد لك الانتصاب كما كان وتساعدك على ممارسة الجنس كما لو كنت شابا؟

ضحك (صابر)...

فضحكت (رئيسة) وهدأ خفقان قلبها.

همس في أذنه: أحدثك بصراحة بالغة، إنني أعمل عطارا منذ ثلاثين عامًا وغالبية الرجال يسألونني هذا السؤال نفسه.

كنت أمس أنصح أحد زبائني بعيدان عشبة القسط الهندي فتناول ملعقة صغيرة من مطحون العشب بمعدل مرتين في اليوم، أو إضافته إلى كوب من الحليب يعمل على زيادة الحيوانات المنوية ويزيد من قوتها و قدرتها على الانتشار وتلقيح البويضة ويزيد من القدرة والرغبة الجنسية عند الرجال، أيضًا يساهم في تنظيم الهرمونات لدى النساء و

يعمل على تنظيم الدورة الشهرية وإدارة الطمث وعلاج الاضطرابات المصاحبة عن طريق تناول مشروب العشبة ويعالج بعض حالات العقم ويساهم في تنشيط المبايض ويزيد من القدرة والرغبة أيضًا، لكني عدلت عن هذا الاقتراح عندما قرأت الدراسة الهندية الحديثة في ضعف الانتصاب التي توصي بالآتي:

*تناول فاكهة(الأفوكادو) لعلاج ضعف الانتصاب حيث أشار التقرير إلى أن الإجهاد المفرط في الحياة اليومية يؤدي إلى اتباع أسوأ العادات مثل التدخين والإفراط في شرب الكحول والاكتئاب وزيادة الوزن ومرض السكر، وجميع هذه العوامل تؤدي إلى ضعف الانتصاب، وأنها تعد من المشاكل الشائعة بين الرجال خاصة من عمر ٣٥ حتى الـ٤٠ عاما، وعلى الرغم أن هناك بعض الحالات غير قابلة للشفاء من المشكلة، إلا أن هناك طرائق طبيعية لعلاج ضعف الانتصاب عن طريق تناول فاكهة الأفوكادو، فإنها من الفاكهة المثيرة للشهوة الجنسية وتعالج مشكلة ضعف الانتصاب.

*المشي لفترة طويلة في الصباح: المشي من التمارين الرياضية التي تضيف للدم والدماغ الأكسجين النقي، كما أن المشي لفترة طويلة في الصباح يجعلك بعيدًا عن الإصابة بمرض السكر والسمنة، فهما من أكثر الأسباب شيوعا للضعف الجنسي، والمشي أحد الطرق الطبيعية الأكثر فائدة لعلاج الانتصاب.

*ممارسة تمارين الحوض (كيجل) بانتظام فهي من الطرق الطبيعية لعلاج ضعف الانتصاب، فإنها تعمل على تدفق المزيد من الدم إلى العضو الذكرى وتقوية عضلات الحوض، مما يجعل العلاقة الجنسية أفضل.

*تناول الجنسنج معروف بالفياجرا العشبية، بالنسبة إلى نبات الجنسنج الأحمر يجب غلي جذوره المجففة وتناوله مشروبًا، فهي واحدة من أفضل الطرق لعلاج ضعف الانتصاب بشكل طبيعي.

ظل الرجل فاتحا فاهه ومنصتا بدقة لما يسمع، وبعد أن انتهى (صابر) من نصائحه شكره بحرارة بالغة وصافحه على عجالة ثم عاد إلى زوجته وابنه المخبول الذي اعتاد أن يحرجهم مع الناس.

جرت (رئيسة) على زوجها فور ابتعاد الرجل عنه ودست يديها تحت إبطه وخرجت معه خارج القاعة.

سألته ما الأمر؟ لقد رأيتك تضحك من أعماق قلبك.

أجابها وهو مازال مبتسما لقد كان يستشيرني في وصفة.

رفعت حاجبيها وقالت أي وصفة؟

فرك وجهه وأغمض عينيه وهو يكتم ضحكاته وقال لها وصفتي الهندية وصفة الشباب والحيوية، ثم نظر لعينيها وقال يريد أن يعود شابًا مثلي أسدًا في غرفة النوم.

همست يا إلهي!

كادت أن تقع على الأرض من ضحكاتها وأمسكت ببطنها من شدة الضحك على ذلك الموقف.

خلع بذلته فور وصوله المنزل وجلس بلباسه الداخلي فقط ومر أمام حوض السمك الذي أحضره معه في رحلته خشية أن يموت بمفرده من الجوع.

ينظر إليه... يتأمل فقاعات الماء الخارجة من فمه، يقترب بوجهه من زجاج الحوض الصغير ويهمس بشفتيه: هل تحتاجان إلى وصفات هندية أيضا لممارسة الجنس؟ هل الحب بينكما يشترط فيه أن يكون كل منكما في عنفوانه وحميته؟ ثم جلس وأغمض عينيه ورجع برأسه إلى الخلف فوجد ذراعي (رئيسة) تلتف من وراء ظهره وتضم بطنه.

همست في أذنيه وقالت مالك! ما الذي يدور بذهنك وما سر الوصفة الهندية التي تضحكك مرة وتحزنك مرات؟

حدثها ومازالت عيناه صوب السمك وقال: منذ أن عملت بالعطارة وتعمقت في التركيبات وبدأت أعطي النصائح والوصفات، وأنا في غاية التعاسة.

تعاسة! قالتها باستغراب ... لم!

لا يمر عليَّ يوم دون أن تسألني امرأة عن أصناف البهارات التي كتبتها وراء برامج الطبخ، ولا تمر ساعة دون أن يسألني رجل أو شاب عن تركيبة تحفز شهوته وتصل به إلى قمة النشوة.

همست في أذنه ولكن هذا الأمر جيد، إنه مربح!

قاطعها قائلا إنه دنيء. سكت للحظات وصمتت هي الأخرى عندما رأت وجهه عابسًا ومخيفًا.

التفت برأسه ناحية فمها ونظر في عينيها وقال: أصبحنا أمة شغلها الشاغل هو ملء بطنها ومتعة فرجها.

تملص من ذراعيها ونهض واقفًا، أمسك بريموت التلفاز وأشعله وراح يقلب قنواته وقال لها انظري معي هذا برنامج طهي يعلم الناس طريقة طبخ أشهى المأكولات انظري إلى قائمة المقادير الطويلة، ثم قلب المحطة إلى المحطة التي تليها ونظر إليها وقال وهذه قناة أغانٍ مصورة بفتيات عاريات ونساء خلقن لإثارة الرجل والشاب وتضليل الأمة.

ثم أخذ يقلب قنوات عدة حتى وصل إلى القنوات الإخبارية. نظر بعينيه الحادة إلى عينيها العذبة وقال بصوت منكسر هذه فلسطين المنكوبة وهذا المسجد الأقصى الأسير وتلك الجنازات التي لا تنتهي منذ بدء احتلال اليهود للقدس.

ابتسم بسخرية ممزوجة بالندم وقال معذورة أنت لقد نسيتِ أن فلسطين محتلة من إسرائيل وكذلك بغداد من أمريكا. معذورة لقد تعمد الإعلام أن ينسيك تلك الأمور. ركز فقط على برامج الطبخ وإعلانات القوة الجنسية وأخبار المشاهير الملاعين.

ابتلعت ريقها واستنشقت نفسًا عميقًا وقالت بصوت أجش: الآن فهمتك.

أغلق التلفاز وألقى بالريموت بغضب وقال لها بحسرة ماذا صنعنا غير صواني المأكولات والحلويات! ماذا أنتجنا غير أطفال ملؤوا الشوارع دون غاية أو هدف. ثم ترجل بقدميه خطوتين وألقى بنظره على حوض السمك من فوق سطح الماء وأردف قائلا ولا أمل!

أغمضت (رئيسة) عينيها وارتكزت برسغيها على فخذيها ومالت برأسها قليلا للأسفل وهي تقول أصبحنا بلا قضية، صار المظلوم فينا ظالما لنفسه أيضًا، أخذتنا المتع الجسدية بعيدًا عن المعاني الروحية والحسية.

التبس علينا فهم الحق وصرنا جميعا آلفين الباطل... تعودنا عليه حتى بدا لنا أن الاحتلال أمر واقع وأبدي لا يمكننا الخلاص منه. ثم رفعت رأسها ناحية (صابر) وقالت هل تعتقد أننا سنحيا لليوم الذي نرى فيه فلسطين وقد حررت والعراق قد عادت شامخة أبية؟

تجهم وجه (صابر) واعترت ملامحه الحزن والخذلان وقال: لا، ثم صمت بضع ثوانٍ وأغمض عينيه بقوة وكررها مرة أخرى بصوت هزيل لا.

كيف تعود فلسطين ولم تعد بيوتنا متحدة ولم تعد الأخوة ذات أولوية.

راح يجلس بجانبها ونظر إلى عينها اللامعة بالدموع والموشكة على الانهيار وأردف: نحن لا نتحد إلا عند الموائد وعند المضاجعة،

عند الأحاديث الفارغة وعند الطرائف، هناك عند الفضائح سوف تجدين مئة فرد ومئتي أذن وألسنة كالحيات تخوض وتروج وتملأ الأرض مهازل. لكن عند الجهاد والمشقة والشعور بأن الموت في ذلك الطريق سوف تجدين كل هؤلاء قد هرعوا إلى أَسِرتهم وارتكنوا إلى

أفخاذ نسائهم وتحججوا بالأولاد والآباء، والحقيقة أن فلسطين نفسها تأبى أن يحررها أشباه الرجال.

ارتمت بحضنه كطفلة تود الاحتماء من كل شرور الأرض، آلمها أن تسمع ما كانت تخشى أن يكون حقيقيًّا، شعرت أن الهزيمة التي تعيش فيها الأمة لربما بالفعل تستحقها.

ظلت تتمسح بجلده مرتجفة من الخوف.

الخوف من المجهول والخطر المشؤوم الذي قد يصل إلى باب شقتها كما وصل إلى فلسطين وبغداد والبوسنة وليبيا وأفغانستان.

ضمها (صابر) بقوة ذراعيه إلى صدره العاري ووضع خده على رأسها وأغمض عينيه وقال بصوت خفيض "الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج" كنت دومًا أسمع تلك الآية من صديقي المسيحي، ثم أردف: سألته ذات مرة عن سبب ذكرها دائما في أثناء حمله شكائر الأرز والذرة فوق ظهره فأجابني بأن التعب هو علامة الجدية والالتزام وتقدير المسؤولية سواء في الزراعة أو في الجهاد الروحي أو في خدمة ملكوت الله، أهون بها على نفسي يا صديقي حتى أصل إلى

مبتغاي وأحصد، أود أن أفتح محلا كبيرا للعطارة، لقد سئمت أن أظل طيلة حياتي عاملا "شيالا" لا يحترمني أحد ولا يضعون قبل اسمي لقبًا، لقد ابيض شعري وتدلت لحيتي ومازال صاحب العمل وابنه الذي يصغر ابني ينادونني بـ(حنا).

و(حنا) ينادي الجميع بالأستاذ والبيه والباشا والريس.

لن يحترمني أحد يا (صابر) ما دمت ضعيفًا ومحتاجًا لقوت يومي ... صدقني سوف أحصد الابتهاج قريبًا.

رفعت (رئيسة) رأسها من على صدره ونظرت إلى عينيه من أسفل ذقنه وقالت بندم: ليتنا نزرع الجد والحب والانتماء كي نحصد الابتهاج.

الفصل الخامس

عاد (صابر) وزوجته الشابة الجميلة إلى الحي بعدما قضيا شهر عسل لا ينسى، استقبله أخوه (رشدي) على باب المنزل وأخذ من يدها حقيبة ضخمة كانت تؤلم ذراعيها وفقرات ظهرها، لم يكن (صابر) منتبهًا أنه يحمل الحقيبة الخفيفة إلا بعدما وجد أخاه يرفعها على رأسه ويصعد بها مترنحا على درج السلم.

عاد برقبته إلى الوراء ونظر إليها صاعدة خلفه وقال متعجبًا: لماذا لم تشتكي من ثقل الحمل على بدنك وأوحيتِ لي أنك تحملين ريشة ولا تبالين؟

ابتسمت له ابتسامة رضا وقالت تعلمت من أمي ألا أشتكي وأن كل صعب سوف يلين وأن علامات الصبر تمثل في السكون وأن الضجر لن يزيح ما أثقلته البلايا وأن أستعين بالله في النعمة والمحنة

وأن لا أتواكل على الرجل في كل شيء وأن لا أقول هو رجل فليفعل كل شيء.

ثم حدقت بعينيها الباسمة إلى عينيه الخشنة وقالت هيا. التفت كما كنت ودعنا نصعد إلى شقتنا.

وفي أثناء صعودهما قابل أخاه يفتح باب شقته في الدور الذي يقع أسفل منه ويغلقه بضجر خلفه.

قالت: يبدو أننا تأخرنا عليه وتركناه طويلا أمام شقتنا.

فتح (صابر) باب الشقة وجر الحقائب وأغلق الباب وفور تخطي (رئيسة) العتبة دفعها على الباب من الداخل وقبلها بحرارة وشغف.

عانقته وبادلته الوله وقبلت كل وجهه وقالت على استحياء: هل أخذت الوصفة الهندية ونحن في القطار؟ جحظت عيناه واعتلت حاجبيه الدهشة وعاد بجسده للوراء وتعالت ضحكاته وقال: لا، ثم استدار ناحية الحقيبة البلاستيكية التي بها حوض السمك ثم فتحها وأخرجه ووضعه على المنضدة وقال مرة أخرى وهو ناظر إلى السمك يبدي استنكاره " لا... لا"

أنا الطبيب الذي أشخص الدواء لست المريض التائه الذي يبحث عن علاج يواري اسوداد وجهه أمام زوجته.

بادرته مسرعة قائلة لم أقصد أن أقلل منك فقط أردت أن أمزح أرجوك لا تسئ فهمي.

ضحك قائلا: لا تقلقي إنني أتفهم ذلك، لكني أردت أن أوضح لك أن كل ما يحدث بيننا مصري خالص ليس للهنود فضل فيه.

دخلت غرفتها مسرعة ووبخت نفسها قائلة: يا لك من امرأة متناقضة لقد أبهرته بحكمتك على درج السلم، ولم تمر الدقيقة حتى جزع منك على أعتاب الشقة. أغمضت عينيها واستنشقت هواء كثيفًا يبرد صدرها الملتهب من نار اللوم الذي تصبه على نفسها.

وفي أثناء شرودها وجدت يده على كتفها وأنفاسه قد اقتربت من أذنها من خلفها.

مال برأسه على رأسها وقال وهو ضاحك العينين أتدرين ما مشكلة الإنسان الكبرى؟

نظرت إلى المرآة أمامها وهي تنبس بصوت خافت: ما هي؟

أجابها " كثرة التفكير" يفكر الإنسان أكثر مما يفعل، يرسم أحلامًا دون أن يدون ملامح الطريق، يحاسب نفسه على الأفعال العفوية والغير مقصودة ويفتخر بالأفعال التي تعمد فعلها حتى وإن كانت كارثية، يريد أن يسمع ما يتمنى سماعه وينزعج إذا حدث العكس، يحب أن يمتلك كل شيء في اللحظة نفسها التي تمنى فيها الشيء، وإن عجز اعتبرها تجربة فاشلة وبكى عليها طويلا.

ابتلعت ريقها وهي تسمع وصفه البالغ لما يجول برأسها، أخرجت زفيرًا قاسيًا والتفت له وعانقته وقالت: لا أريد أن أتحدث أريد فقط أن أعانقك وأحتمي بعقلك الذي يرى الأمور بوضوح.

عاد (صابر) إلى دكانه صباح اليوم التالي وسط ترحيب الحارة به والتفات الأنظار إليه، إنه العروس الهمام الذي ظفر بفتاة الحي الجميلة المرغوبة من كل صنف وعمر من الرجال.

وجد المحل بحالة يرثى لها فكل شيء فيه غير منظم والشكائر الفارغة لم يتم استبدالها من المخزن، والبرطمانات معفرة بالأتربة، والأرفف متسخة كأنها معروضة على الرصيف.

صاح في وجه الفتاة وعنفها قائلا: لم أتركك يومًا بمفردك إلا فعلتِ مصيبة أو تركتِ المحل دون رعاية وتنظيم، يا لكِ من مستهترة.

بكت (سميرة) كعادتها عند سماع أي توبيخ أو تعقيب على أدائها وانزوت دون أن تنطق بكلمة.

خرج من المحل غاضبًا ناحية مخزنه الواقع خلف دكانه بشارعين، تحديدًا إلى جوار مخزن صديقه (حنا).

فوجئ بسيارة إسعاف واقفة على عتبة مخزن صديقه. جر قدميه مسرعًا واتجه ناحية السيارة فوجد صديقه مغمض العينين ومحملًا على نقالة يجرها المسعف والسائق إلى داخل السيارة.

لم يفكر في الأمر وقفز خلف النقالة داخل سيارة الإسعاف وجلس على الناحية المقابلة لابنه (يوسف) المنهار ودموعه تسيل كالنهر الذي شق السد واندفع دون توقف.

حاول أن يستفهم من ابنه عما حدث لأبيه لكن أنفاسه من شدة البكاء عجزت على الهمهمة بأي حرف.

فتح (حنا) عينيه وهو غير قادر على تمييز الأشخاص من حوله، رفع جهاز التنفس من على فمه.

صاح (يوسف) لا تفعل يا أبي سوف تؤذي روحك.

لم يفهم (حنا) أي كلمات تلقى عليه وكان يتصرف بشكل عبثي لا إرادي.

كان صدره ينتفخ بشدة عند التقاطه لأنفاسه التي يجرها عنوة من الحياة.

- إنني أشم رائحة (صابر) هل هو هنا؟

أمسك (صابر) بيده وانحنى برأسه عليها يقبلها وعيناه تفيض من الدمع!

- طوال ثلاثين سنة وعطرك المميز لم يتغير.

هز (صابر) رأسه: صحيح لم أغير زجاجة عطري طيلة حياتي.

كان عمرك (يا صابر) عشرين سنة حين عملنا معًا، إنني أتذكر عينيك الناصعتين وهما تنظران إلي بإشفاق على سوء حظي وعمري الذي ضاع في خدمة الناس، أتتذكر يا (صابر) عندما أقسمتُ بالمسيح

أنني سوف أفتح محلا للعطارة وأصبح تاجرًا كبيرًا في السوق قبل أن أموت؟

وقبل أن يجاوبه (صابر)، هم (حنا) بتذكرته بأنه حقق حلمه أيضا متأخرًا وقال: لقد أصبحت صاحب عمل بعد فتحك لمحلك بخمس سنوات.

حتى أنت يا (صابر) سبقتني ونلت مرادك سريعًا.

استجمع (صابر) قوته وقال له: لقد نلتُ مرادي من تحفيزك لي ونصائحك التي لم تمل من أن تكررها علي كل يوم، إنني أتذكر عندما كنت تضرب بنفسك المثل قائلا خذني عبرة أمامك سوف يمضي عمرك وتضمر عظامك ويقل مجهودك وأنت مجرد عامل عتال يستغني عنك صاحب العمل في أي وقت.

اقترب من رأسه وقبلها وقال له لقد أنقذتني يا والدي.

ابتسم (حنا) ابتسامة رضا وشعر أنه قدم شيئا آخر جيدًا في حياته جنبا إلى استقلاله بالعمل والتجارة.

قال لـ(صابر) بصوت يودع الحياة ويسلم أنفاسه الأخيرة: لا تترك (يوسف) وحيدًا... اعتبره ولدك مثلما اعتبرتني والدك... ومات.

عند نقطة الموت يقف ذهن المرء مدة من الزمن ليستوعب حقيقة الحياة، ويضع روحه مكان الروح التي صعدت إلى بارئها هي الحقيقة الحتمية والمؤسفة والنهاية الطبيعية والمكروهة والملاذ الأخير والبداية لحياة أخرى.

أغمض (صابر) عينيه واستند بظهره على عظام سيارة الإسعاف وراح يتذكر وفاة أمه وجنازة أبيه واحتضار صاحبه وبدا له الموت كأنه ينظر إليه ويقول له لقد اقترب دورك. فهل أنت مستعد!

استعاد ذهنه مجددًا على بكاء (يوسف) وانهياره، توقفت سيارة الإسعاف أمام المستشفى، فتح المسعف الباب الخلفي وقفز ناحية جثمان (حنا) فوجده ميتا لكنه صمم على إدخاله المستشفى لربما يعود قلبه للنبض بعد صدمة كهربائية.

نزل (صابر) من سيارة الإسعاف يلملم قدميه غير مدرك لما يحدث حوله، ومشى إلى الاتجاه العكسي من المستشفى محملق العين لم يطرف له جفن. صاح فيه (يوسف) من الخلف: إلى أين أنت ذاهب وتاركني؟ ألم يوصك بي أبي؟ يا عم (صابر) ... يا عم (صابر)، لا تتركني.

وقف (صابر) وراح يلتفت إلى الصوت الذي يصيح فيه وينادي على اسمه. رج رأسه وأغمض عينيه وفتحهما مرارًا ثم مشى ناحية (يوسف) واحتضنه وخر باكيا في أحضانه وقال بصوت مختنق ومرتجف: إنني لا أشعر بنفسي أنا فاقد السيطرة على ذهني وأناملي، سامحني يا ولدي.

يوم حزين خيم على السوق فقد أغلق التجار محلاتهم فور سماع الخبر وأطفأت المقاهي إذاعات الأغاني والشباب والرياضة.

استاء أحدهم كان منسجما مع أغنية لأم كلثوم فصاح في صاحب المقهى: لماذا تغلق المذياع ألا تراني متيمًا بالست ومندمجًا مع موسيقاها؟

أخبره الرجل بأن تاجرًا في السوق قد مات وهذا عرف الحارة. إذا مات منها أحد أُغلقت المحلات وأُطفئت أجهزة الصوت، ونصبح في حالة حداد مثل التي بها صاحب المصيبة.

سكت الزبون المولع بالأغاني واعتبره أمرًا مخجلا أن يستمر في جدال صاحب المقهى، فقال بإشفاق: إذن فلتشغل على روحه إذاعة القرآن الكريم رحمة له ومغفرة.

استدار صاحب المقهى ناحية الزبون الغريب عن الحارة وقال بصوت خفيض قد نفذ منه الصبر على ذلك الزبون المزعج: إن الميت مسيحي.

ثم انصرف من أمامه مسرعا حتى لا يجره إلى جدالات دينية وعقائدية لن تنتهي.

تجهم وجه الزبون وأغمض عينيه من التأثر وهمس يا أبانا السماوي يا من بيدك روح كل حي وبأمرك الحياة والموت أنت الذي نقلت عبدك فاستراح جسده من تعب الدنيا وعادت روحه إليك أنت

موضع الأمن والراحة فليكن سعيدًا أمامك. وراح يقرأ على روحه آيات من سفر المزامير لداود النبي.

دفن جثمان (حنا) ورمى الكاهن حفنة من تراب قال بعدها: أنت يا آدم من تراب وإلى تراب تعود.

ظل (صابر) رافعًا رأسه ثاقبًا بصره على مرقد أبيه الروحي ودموعه منهمرة على خديه متذكرًا كل ابتسامة قابله (حنا) بها، وكل نصيحة أداها له وكل سر حفظه وكل مال اقترضه وسدده قبل موعده المقرر فيه دفعه.

عاد (صابر) إلى دكانه وعليه حزن كحزن يوم موت أبيه، أخذ كرسيًّا وجلسه يلتقط أنفاسه وينظف ملابسه من غبار المقابر.

نظرت (سميرة) إليه حزينة على حاله؛ لعلمها من هو (حنا) بالنسبة إليه وماذا يعني موته في قلبه!

صبت له كوبًا من الماء ومدت يدها ناحيته، أخذه على الفور وراح يشرب مرتعد اليد حتى صب الماء على رقبته وقميصه.

قام من مقعده وقال لها أطفئي الإنارة وأغلقي المحل وغدًا سوف أحضر لك النواقص من المخزن وانصرف وهو واهن حزين.

وقف أصحاب المحال في الحارة ينظرون إلى (صابر) بإشفاق على فقدانه صديقًا كان يفضله على كل الرجال، وما سمعوه يتحدث مع أحد إلا وأقحم اسمه في وسط الكلام؛ حتى قال فيه الخبثاء إن (حنا) يجرجر (صابر) ويغويه إلى اعتناق المسيحية وترك الإسلام.

العالم يتقدم وكل فيمتو ثانية يظهر اختراع جديد يبهر البشرية ويخدمها وينقلها من زمان إلى زمان، إلا أن العقول ما زالت غارقة في العنصرية والتعصب والانحياز دون تمييز. مازال الأبيض يسخر من الأسود والقوي يهزأ بالضعيف والغني يشمئز من الفقير والأغلبية المسلمة تقهر القلة المسيحية والأغلبية المسيحية ترى القلة المسلمة وباء يجب وأده قبل أن يتمدد ويتوغل.

يا له من عالم هش وهزيل تحكمه الأمزجة السادية والنفوس التي تهوى العبث بكل شيء، على رأس كل قبيلة صعلوك أوهم الجميع أنه ملك، ومفتون بنفسه يدعو الناس كأنه رسول منزل، ومريض نفسي

أمسك بسلاح كلما روع الآمنين وشاهدهم يتوارون عنه انتشى وفرح وجن جنونه من فرط السعادة. كل الصراعات العفنة التي قادها هؤلاء الملاعين دفع ضريبتها من لا حيلة ولا سلطان لهم.

فتحت (رئيسة) الباب عندما سمعت صوت أقدام صابر تنجرف على درجات السلم، قابلته وهي تبكي، ودت أن تعانقه لكنه لم يبد لها الاستجابة لذلك العناق، مر بجانبها وجرى ناحية دورة المياه، ظل لمدة ربع الساعة يلطم وجهه بالماء ويضع رأسه تحت صنبور المياه وكأنه يريد أن يوقظ نفسه من حلم لا من حقيقة دامغة بموت رفيقه.

أحضرت (رئيسة) المنشفة ووقفت خلفه تنتظره، حاولت أن تقول له كفى، توقف، ارفع رأسك، لكنها خشيت من ردة فعله وظلت صامتة.

أمسك من يديها المنشفة ووضعها على رأسه وراح يلقي بجسده المنهك على سريره والمنشفة فوق وجهه.

جلست (رئيسة) بجانبه وهمست بصوت عذب تواسيه في(حنا): والله لقد أحببته من حبك له وانفطر قلبي على وفاته، لكنها الدنيا وأنت تعلم أكثر مني أننا جنائز مؤجلة وسوف يوارينا التراب وكأننا لم نمشِ على الأرض يومًا.

لم يجبها بشيء وظل صامتا متصلب الجسد مغطى الوجه، قامت ناحية قدمه لتفك حذاءه وهي تقول له على استحياء: هل تسمح لي بعد أن واسيتك في رفيقك أن أبشرك برفيق لنا جديد.

لم يجبها وظل على حاله!

ابتسمت وهي تلقي بالحذاء على الأرض وقالت سوف تصبح أبًا عن قريب.

خلعت جوربه وأردفت: أمات الله رفيقك، وأحيا لك رفيقًا جديدًا، ألا يستحق هذا منك الحمد والشكر وأن تصبر على فراق (حنا)

أمسكت بقدمه ناظرة إلى وجهه المغطى منتظرة منه أن يزيح المنشفة عنه ويرد على بشارتها، لكنه لم يجب.

الفصل السادس

وقفت (رئيسة) خلف ابنها (يحيى) بعدما بلغ من العمر عشرين عامًا وهو على وضع رياضة اليوجا. وضعت يدها على كتفه العاري ففتح عينيه وتغيرت ملامحه الساكنة وبدا عليه التذمر.

التفت برأسه، وقدماه وجسده ثابت على وضعه وقال لها: نبهتك مرارًا عندما أكون جالسا في عزلتي ألا تزعجيني مهما حدث.

أجابته بصوت هزيل لقد تأخرت في تأملك هذه المرة الأمر الذي أرعبني فجئت لأتأكد أنك بخير.

نهض (يحيى) من على سجادته التي اعتاد أن يجلس عليها في أثناء رياضته، ثم قال لها ناظرًا إلى حوض السمك الذي لم يفارق البيت، لقد بدأت أشك في قدرتك التي حدثتني عنها منذ طفولتي، بدا لي لأول مرة أن قلبك ضعيف وأنك كثيرة الظنون ودائمة الارتياب.

نظرت لعينيه اللتين أخذتا صلابة والده وقالت متجهمة الملامح: إنني أراك نسخة من (صابر) حتى في كلامك وحركاتك وجلوسك باللباس الداخلي صيف شتاء بالمنزل. ثم أردفت: ألا تود أن تكون نسخة أخرى ومستحدثة تناسب زمانك.

أمسك بعلبة طعام الأسماك وأخذ منها حبيبات بأصبعيه وألقاها للسمك: ألا ترين أنني أحدثت تغييرًا كبيرًا في حوض السمك واستبدلت الأسماك الشرسة كالأوسكار والسيكليد بالأسماك المسالمة مثل المولي والأنجل.

ثم أغلق علبة طعام السمك وأردف بغضب: لقد بدا كل شيء في هذا العالم شرسًا وعنيفًا، لم يعد للطيب المسالم اعتبار في الفصل ولا النادي ولا السوق.

ثم تنهد بمرارة وهو يقول: السوق... آه من السوق، إنه عالم آخر موطن الأحقاد ومرتع الغش ووكر السكارى الحيارى.

ثم استدار بجسده ناحية الشباك المطل على المحل وعلى المئذنة التي تقول الله أكبر خلفه، وقال إنه صوت الحاج (رمضان) يجلس في

وكالته يتحسس أيدي النساء ويتمحص في أردافهن وعند وقت الصلاة يقوم ليؤذن في الناس.

أغمضت عينيها وفتحتهما وهزت رأسها باستياء وجذبته من ذراعه: ارجع للخلف بجسدك العاري كي لا يطلع عليك الجيران ثم سألته مستنكرة وهل لهذا السبب تركت الصلاة في المسجد؟

أجابها بسخرية نعم: كيف أقف بجانب اللصوص والمغتابين والهمازين في صف واحد!

يا بني لا ترهق نفسك كثيرًا بالحارة والسوق وطباع الناس اتركهم للخالق هو أعلم بالصادق من المنافق، اعبد الله بما يحب ليس بما تراه أنت.

أجابها: كل شيء تركناه للخالق حتى المسجد الأقصى تركناه، تركناه حتى من دعائنا. أصبح الرجل منا متساهلا في ضياع دينه ولا يتساهل في مليم أقرضه لمحتاج. الخالق بريء منا سيستبدلنا يا أمي نحن عالة على الأرض نأكل ونتاجر ونتكاثر، و...

وضعت يدها على فمه وصرخت فيه وقالت كف عن الكلام الذي يذبحني بسكين بارد. قلت لك مرارًا أنت مثل أبيك نسخة منه تذكرني بكل شيء كان يقوله تذكرني بأفكاره. خذ لك طريقًا آخر غير الطريق الذي قضى عليه.

كان يحب بإخلاص كان يحمل هم الإنسانية كان يتاجر بشرف. كان يمشي على قدميه بيننا ثم جلست على الأريكة وبكت.

خرج (صابر) على كرسيه المتحرك من غرفته، ثم نظر بافتخار إلى ابنه (يحيى) ورفع له علامة النصر بيده المرتعشة وعاد إلى الخلف بكرسيه مرة أخرى.

الفصل السابع

بينما كان طلاب كلية الحقوق مجتمعين خارج قاعة اختبارهم الشفوي، سُمع صوت دكتور (عبد الرحيم) ينادي على الطالب (يحيى صابر). هرع يحيى إلى القاعة ووقف أمام أستاذه ينتظر السؤال الذي سيلقيه عليه.

س: اذكر لي الفرق بين الفسخ والانفساخ والتفاسخ في القانون المدني المصري.

ج: الفسخ: هو إنهاء العلاقة التعاقدية بين المتعاقدين بناءً على طلب أحدهم. ويكون ذلك إذا أخل أحدهم بتنفيذ التزاماته العقدية. والفسخ لا يكون إلا قضائيًّا.

الانفساخ: هو الفسخ التلقائي (أي دون حاجة إلى حكم قضائي) ويتحقق بمجرد توفر شروطه، أي الشروط التي تؤدي إلى الانفساخ، وهي المتفق عليها بين المتعاقدين في العقد.

التفاسخ: وهو الفسخ الاتفاقي الإرادي الذي يتم بتقابل إرادات المتعاقدين، حيث يتفق المتعاقدون على فسخ عقدهم بالتراضي، وبالتالي، التحلل من الالتزامات المترتبة على كل منهم بما يناسبه.

- إجابة ممتازة يبدو أنك سوف تصبح محاميًا بارعًا.

نظر له (يحيى) بغيظ وقال: ولِمَ لا أصبح وكيل نيابة بارعًا؟

تلعثم أستاذه وأشار له بيديه أن يقترب ويحني رأسه: إياك أن تحلم بشيء يقتلك.

حدق عينيه في عين الدكتور (عبد الرحيم) وسأله مستهجنا: يقتلني؟ لماذا يقتلني ذلك الحلم؟

أجابه: نعم سوف يقتلك كما قتل آلاف الشباب الذين حلموا بالمناصب الرفيعة في الوطن.

رفع (يحيى) رأسه دون عينيه اللتين لم ترتفعا عن الأرض وتمتم: هل هذا يعني أنني سوف أصبح عطارًا مثل أبي؟ هل سأمضي طيلة حياتي في ذلك السوق اللعين؟

سأله معلمه بغضب: لعين! أنت قلت لعين؟ على من تقول اللعنة؟ انطق؟

قال (يحيى): للوطن.

نهض الدكتور(عبد الرحيم) من كرسيه ووضع يده على كتفه وقبض بأصابعه عليه وقال: أنت تلعن الوطن يا (يحيى) وما ذنب الوطن؟

- وما ذنب أحلامي!

وما ذنب عقلي وعيني وأهلي في معاناتهم معي حتى أبلغ حلمي!

أي ذنب أقوى من الآخر.

لعنة الوطن أم ضياع شاب ودهسه تحت عجلات أحلامه؟

اهتاج (عبد الرحيم) وصاح قائلا: لا تكرر مأساتي، أرجوك لا تحلم أحلامًا سوف تصبح يومًا لعنة عليك وعلى والديك قبل أن تكون لعنة ووبالا على الوطن والأمة.

- يا ليتني ما جادلتك وسمعت ما سمعت.
- يا ليتك سألتني قبل أن تلتحق بالكلية.

التف الطلاب في الخارج واجتمعوا خلف الباب بعدما وصل صوت الجدال إلى خارج القاعة.

دفع (مايكل) زملاءه واندفع ناحية الباب ليرى ماذا يحدث لزميله (يحيى) فوجده خارجًا في اللحظة نفسها التي دفع فيها الباب.

سأله بشغف: ما الأمر؟

أجابه بصوت منهزم: ضاعت أحلامنا، سنظل طيلة حياتنا داخل السوق.

تغيرت ملامح (مايكل): وقال تقصد حلم (النيابة)، هز رأسه وأمسك بيد صاحبه وأخذه معه خارج القاعة.

قفز (يحيى) بشكل مفاجئ متهور على سور ممر الدور الثالث والتفت ناحية زملائه وصاح فيهم: أيها الزملاء، انظروا إليَّ، اجتمعوا حولي، أريد أن أوقظكم من أحلامكم... لا أحلام هنا... لا طموح... نحن جيل ضائع في أمة ضائعة ... نحن جراثيم لا تستحق العيش بكرامة... من كان أبوه مزارعًا فليرجع إلى حقله ومن كان أبوه زبالا

فليعش هو أيضا في أحضان القمامة... ثم نظر إلى (مايكل) وأردف: ومن ولد في الأسواق فليمت فيها.

النيابة للأغنياء، والأحلام لأبناء المناصب، والمهن المرموقة بالرَّشاوَى والوسائط، أما الفقراء إن حلموا ماتوا من القهر إن طمحوا ماتوا قبل أن يبلغوا... اللهم قد بلغت اللهم فاشهد.

صرخت صديقته (هيام): انزل من على السور فالانتحار كفر.

قفز من فوق السور لداخل الممر ومشى ناحيتها وأردف بصوت هادئ: والطموح وسط الفساد كفر، والأحلام وسط الكسالى كفر،

والاجتهاد وسط الرشاوى كفر، والنزاهة وسط الزناة كفر!

كل الأمور في وطني تدعو إلى الكفر...!

صاح الدكتور (عبد الرحيم) من على عتبة باب القاعة وقال للطلاب قلت له: ستقتلك أحلامك ولم يسمعني.

اتركوه ينتحر كما انتحر ابن عمي الحاصل على الامتياز بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية عندما رفضته الخارجية لمهنة أبيه

المتواضعة، دعوه يعاني في المصحات النفسية كما عانى صديقي النابغ في دراسته عندما خانه التقدير في واحد من المئة ولم يلتحق بكلية الطب.

هو ضحية جديدة وسوف تكونون ضحايا جددًا إن صدقتم يومًا أنكم تستطيعون.

ثم أمسك كشف الأسماء ونادى على الاسم التالي لامتحانه، وكان ذلك الاسم هو (مايكل).

نظر إلى أستاذه وعاود النظر إلى صاحبه فقرر أن يغادر مع صاحبه دون أن يمتحن.

استشاط الدكتور (عبد الرحيم) غضبًا وقال بانفعال: ستلحقه قريبًا في مستشفى المجانين، والله سوف أسمع عنكما في جريدة الحوادث بعد أن يقبض عليكما بتهمة التطرف والإرهاب.

وفي أثناء هبوطهما على درج السلم سأله (يحيى): لماذا لم تدخل الامتحان؟ سوف يضيع مستقبلك.

عن أي مستقبل تتحدث وقد انكشف كل شيء.

لكن...

لا تحاول معي يا صديقي، لن أتخلى عنك في درب تمشي فيه أو قرار تأخذه.

- مايكل أرجوك...
- يحيى اسمعني ... إنني لا أنسى الذي حدث لوالدك عند موت جدي، ووالدي الذي كان في أمس الحاجة إلى والدك عانى هو أيضا وتخبط كما تخبطت حياتكم بعد وعكة عمي (صابر) الصحية.

إننا شركاء في الألم وشركاء أيضا في المصير.

شرد (يحيى) قليلا والتفت مرة أخرى لصاحبه وقال له بنبرة يملؤها التحدي: ليس أمامنا خيار غير أن نصبح سادة تجارة السوق نوحد تجارتنا ونكبر مكاسبنا. هل توافقني؟

لم يمهل (مايكل) نفسه ثانية وأجابه: بالطبع أوافقك.

عاد (يحيى) برأسه بعدما عبر من البوابة ونظر إلى يافطة الجامعة وقال لها بسخرية نراك كل امتحان من كل عام، لم نعد من اليوم أحبابًا، لم يعد لنا أحلام عند عتبتك.

أغمض (مايكل) عينيه ومال على أذن (يحيى) وقال بخجل وهل ستترك (هيام)؟ ألم تسمع صرختها عندما ظنت أنك ستلقي بنفسك من سور المبنى.

أخذ شهيقًا حارًّا وأمسك برأسه وقال: لا أدري، حقيقة لا أدري.

ثم أسرع في خطوته ليهرب من المكان الذي بداخله (هيام) وقال لصاحبه: هيا بنا قبل أن تخرج وتحاول أن تثنينا عن قرارانا.

الفصل الثامن

دق (يحيى) باب غرفة والده الذي كان مستلقيًا على الفراش، ثم فتحه مباشرة لعلمه صعوبة نطق أبيه، فوجده ممسكا بالمصحف يقرؤه بعينيه دون تحريك شفتيه.

نظر (صابر) إلى ابنه الذي يحب النظر إليه منذ ولادته ثم أومأ له برأسه أن يدخل.

جلس (يحيى) على ركبتيه بجانب السرير واستند بيديه على الكرسي المتحرك المجاور لأبيه، وقال: لقد ألمني شيء اليوم لا أستطيع كتمانه.

تبدلت البشاشة التي ارتسمت ملامح (صابر) إلى عبوس وحزن، فحزنه مضاعف على أي مكروه يصيب (رئيسة) و(يحيى) لا سيما بعد أن أصبح عاجزًا لا يستطيع أن يقدم لهما شيئًا غير بعض الكلمات التي تخرج بصعوبة بالغة.

بذل جهدًا بالغا في أن يقول له احكِ لي ، لكن شفتيه لم تضغم الكلمة بشكل صحيح حتى يئس وأومأ له ثانية أن يسترسل.

وبدون مقدمات فاجأه (يحيى) قائلا:

هل يعاقب الابن بذنب أبيه؟

قطب (صابر) حاجبيه وهم أن يحاول مجددًا النطق.

وقبل أن ينبس بكلمة استمر (يحيى) في انتزاع آلامه وأردف: قال لي أستاذي اليوم لا تحلم أحلامًا سوف تقتلك... منذ متى الأحلام تقتل صاحبها!

منذ متى يبخس بعلم الشاب نكاية في شهادة أبيه ومهنته؟

حلم الالتحاق بالنيابة قد انتهى اليوم يا أبي و...

تشنج (صابر) وأصدر صوتًا مبحوحا كما لو كان يحاول أن يصرخ وسُمع وهو يقول "لا، لا تقل ذلك"

- صدقني إني أقول لك الحقيقة، من أنا كي أكون وكيل نيابة...! من أنت كي تفتخر بابنك النابغ في القانون والمكافأ على اجتهاده وامتيازه!

أغمض (صابر) عينيه واكفهر وجهه وقضم بأسنانه على شفتيه وأغلق مصحفه واحتضنه ثم استدار على جانبه المعاكس لـ (يحيى) وأجهش بالبكاء. قد فهم المسألة وعجز عن الرد والمساعدة.

قام (يحيى) من ارتكازه بركبتيه وخرج من غرفة أبيه بعدما خاب رجاؤه في حلمه الذي بنى آماله عليه.

تدخل أمه من باب الشقة تحمل على رأسها خزين الأسبوع من الخضر واللحوم، تجد (يحيى) ناظرًا لها دون أن يهم في إنزال الحمل من فوق رأسها. تتعجب لعدم اكتراثه بعرقها الذي يتصبب من رأسها.

تسأله مستنكرة ألا تراني أعافر في التقاط أنفاسي وغير قادرة على حمل طعامك؟ فلم لا تحمل عني كعادتك؟

إذا كنت تفعل معي ذلك قبل تخرجك في الجامعة فماذا ستفعل معي عند عملك بالنيابة؟

ابتسم لها (يحيى) ابتسامة مصطنعة وشعر بلسانه ينسحق ويتضاءل، ثم رفع يده وأشار إليها بأصبعه (لا).

أنزلت الحمل من فوق رأسها وخلعت حجابها ومسحت به عرق شعرها وجبينها وجلست تلتقط أنفاسها وأردفت: لا على ماذا... أراك مريبًا اليوم وغير طبيعي... فما الأمر؟

مشى بتثاقل ناحيتها ونظر إليها من أعلى وهي جالسة، وقال إنسي أمر النيابة فلنركز في السوق فلنربح أكثر من التجارة.

اغتم وجهها مدهوشًا: أحلامك وجهدك طوال الأعوام الماضية! ووقوفك بالساعات أمام المرآة وأنت تمثل جلسات التحقيق مع المتهمين.

استشاط غضبًا وصاح فيها... وهل كنت تراقبينني؟

- نعم، ليس عيبًا أن أراقبك؟ أنت لا تشعر بحالي ولا تدري عن الصدمة التي تعرضت لها من يوم وعكة أبيك.

إنني أراقب أنفاسكما ليل نهار أخشى عليكما أكثر من خشيتي على نفسي. هل أنت مدرك لما تقول؟

- نعم أدركت اليوم في امتحان الشفوي أن آلاف الطلبة المتفوقين لم يحالفهم الحظ في التحاقهم بالنيابة لاعتبارات اجتماعية!

أغمضت عينيها وقالت: هذا هراء!

أجابها على الفور: الهراء هو أن أستمر في قتل نفسي.

قالت بعطف: لا عليك بالنيابة واجتهد بالتجارة فليس كل ما ندرسه بالجامعة ينفعنا أو نتربح منه.

أجابها بحسرة: وهل هذا يصح في وطن نتغنى كل يوم بحضارته وتاريخه وبسالة جنده وشعبه!

ابتعلت ريقها واهتز فؤادها وجلست وهي تقول لا يا بني ليس فخرًا إنها مصيبة. مصيبة كبرى أن يضيع الوقت بلا فائدة والمصيبة الأكبر أن يتوهم المرء أنه قد وضع قدمه على عتبة أحلامه ثم يكتشف أن قدمه متدلية في بحر من الأوهام.

جلس (صابر) على كرسيه المتحرك وتقدم ناحية باب غرفته ليسمع تحاورهما وقال بداخل نفسه:

أيا وطن، هل قصرت معك كي تقصر مع ابني!

أيا وطن، ألا يكفيك مرضي فذهبت تقهر ولدي!

كنا نقول في شبابنا إن الوطن هو الحصن المنيع.

وشباب اليوم يصرخ إن الحلم فيك عمر يضيع.

ألا مهلا بفلذات أكبادنا...

نحن اقتربنا من التراب...

وأنت باق لهم...

لا تؤذنا في قبورنا...

إذا قسوت على الأحباب

فمن يرأف بهم!

...

جلس (يحيى) على الأريكة ومال على جانبه ممدًا جسده وأمسك بهاتفه المحمول وأخذ يكتب رسالة عبر الياهو ماسنجر إلى (هيام).

يحيى: أعتذر لك على انسحابي من أي وعد قطعته معك، فالأحلام صارت سرابًا كما رأيتِ بعينك.

دق صوت الرسالة على هاتف (هيام)

أمسكته وقرأت رسالة (يحيى) وظلت ناظرة إلى كلماته دون حراك وأخذت تنهنه وتمسح دموعها حتى تستطيع الرد.

هيام: لكننا أقسمنا بأن لا نتخلى عن بعضنا مهما واجهنا من صعاب.

يحيى: وهل سيقبل معالي المستشار أن تتزوج ابنته محاميًا عاديًّا ولديه محل عطارة ليحسن من دخله؟

لقد أصبحت الأمور عبثيه يا عزيزتي.

هيام: فلنجرب... دعنا نجرب حتى لا نندم، حتى لا نكتوي بنار الفراق، حتى لا تصبح ذكرياتنا نوعًا من الوجيعة والعذاب.

يحيى: إنني لا أجرب شيئًا أعرف نهايته مسبقا.

هيام: أنت تهرب ولا تواجه... من يريد يستطيع.

يحيى: إذا كان الأمر بتلك السهولة فلماذا أوصى الصالحون بأن نلتمس سبعين عذرًا للناس!

ثم وضع الهاتف على صدره ونظر إلى مروحة السقف وقال لها بسخرية: هاه يقولون كل الأعذار كاذبة من يريد يستطيع ليلصقوا بنا تهمة التقصير، وأين تقصيري إذن تجاه أحلامي الدراسية والعملية، ثم

نهض غاضبا ناحية منضدة مذاكرته وأخذ الشهادات وقرأ بصوت جهوري: امتياز، والسنة الماضية أيضا امتياز.

ثم عاد ناحية المروحة مجددًا وبيده شهاداته ونظر لها من أسفل وقال، إنه أمر الله فهل سنكفر؟ ثم ألقى شهادته الدراسية بعزم ما فيه على الأرض.

دق جرس صوت المحادثة مرة أخرى، أمسك بهاتفه الذي كان قد سقط على الأرض لحظة نهوضه بعنف وقرأ...

"أرجوك حاول، سأمهد لأبي الأمر وواثقة بأنه سوف يتفهم رغبتي، وإذا رفض في أسوأ الحالات فتلك مشيئة الله"

يحيى: إذا رفض فسوف أنتحر حقًّا.

هيام: لا، لا تكررها.

يحيى: فليكتب الله لك شخصًا يليق بك وتهنئين معه.

هيام: يحيى!

يحيى: الوداع.

الفصل التاسع

على أنغام الديسكو الصاخبة أخذ (يحيى) صديقته (ريتا) وصعدا إلى المسرح وأخذا يتمايلان ويرقصان بمرح وجنون.

نظر إلى أسنانها البيضاء المتلألئة وهي تضحك على آخرها وقال لها: أحبك، مالت برأسها وظهرها للخلف وظلت ترقص وتهز شعرها وكأن العالم كله خلق من أجلها وحدها.

أقامت ظهرها و اعتدلت وعانقته وأردفت: أعلم أنك تحبني ومستعد لفعل أي شيء من أجلي.

أجابها: نعم كل ما تطلبينه مجاب بغير تردد أو حسابات.

ضحكت بصوت مرتفع وخليع وأمسكت ضلوعها من كثرة الضحك.

سألته هل لو كان والداك مازالا على قيد الحياة كنت تستمر في حبك لامرأة عاهرة مثلي؟

تجهم وجهه وأغمض عينيه ثم استدار غاضبًا ناحية البار وتركها.

أشار بيده للنادل أن يصب له كأس فودكا وأشعل سيجارة وأخذ ينفخ فيها بحرقة وغيظ.

أخذ رشفة من الكأس وتذكر ملامح وجه أمه وأبيه وعاد بالذاكرة لعشر سنوات مضت على وفاتهما وكيف تخبطت حياته وضاعت أحلامه ووصل إلى هذا الحد.

نظر النادل إلى عينيه المجهدة من التفكير وقال له بصوت رصين هل تحب مشاهدة الأفلام الهندية؟

رفع (يحيى) رأسه ناحيته وقال له بروح عشش فيها اللامبالاة والفتور: لا أحبها لا أحب السينما مطلقًا لا أحب قراءة الروايات ولا القصص، واقعي الأليم لا يسمح لي بمطالعة تلك الخيالات التافهة.

أجابه النادل إن هذا العالم الذي نعيش فيه لا تختلف أحداثه كثيرًا عن أحداث فيلم هندي، ضحك ورقص ثم بكاء... حب ولوعة ثم فراق... لعب ومغامرة ثم حساب.

- يخيل لي أنك نادل ولست واعظًا.. أليس كذلك؟

- أنا إنسان وحيوان، ملاك وشيطان، نادل ولست نادلا.

جلست (ريتا) بجانبه وهو قاذف بنظره إلى النادل السمين الذي يحاوره وطلبت على الفور كأسا هي الأخرى، مالت على أذن (يحيى) وقالت: أزعجتك كلماتي أم أيقظتك من غفلتك؟

صرف نظره من ناحية النادل وانتبه لها ونظر لعينيها بغضب وقال عن أي غفلة تتحدثين؟

ثم أردف قائلا وهل الوقوع في الحب غفلة؟ وهل الاحتياج لحنان امرأة سقطة؟ لقد عاشت أمي مع أبي شهرًا جنسيًّا واحدًا قبل أن يصاب بجلطة وتشل أطرافه وماتت بعد وفاته بشهر واحد من فرط حزنها على فراقه!

ألا تستحين من استهجانك بالحب والعاطفة؟

رفعت (ريتا) الكأس على آخره وشربته دفعة واحدة وتساءلت متعجبة كيف لشاب في منتصف الثلاثينات مثلك ومحامٍ مرموقٍ في مكانتك لا يميز بين المتعة والحب بين العشيقة والزوجة؟

أغمض (يحيى) عينيه وعض على شفتيه الملتويتين من الاستياء وأخفض رأسه على حافة رخام البار وقال أنا تائه أنا ضائع، أصبحت لا أعلم عن نفسي شيئًا. ثم رفع رأسه وأخذ نفسا عميقًا وقال أنا واثق أن والديَّ يلعناني الآن في قبرهما.

التف بجسده ناحيتها وقال بأسى لقد ظننت أنني عندما أترك السوق سوف أرى النور والأمل خارجه، لكن اتضح لي أن الحياة كلها عبارة عن سوق كل منا يعرض سلعته ويطلب حاجته ويغش في بيعته ويبيع على بيعه صاحبه ويخون من استطاع خيانته.

قاطعته (ريتا) وهل كنت تجهل ذلك الأمر قبل بيعك لميراث أبيك من التجارة؟ ثم أجابت عن سؤالها في الحال قائلة: إذا كنت تجهله فإنك ساذج، وإذا كنت تعلمه فإنك لا شك خائب بالثلث.

ثم تابعت تأنيبه قائلة: إنك لم تضيع أمانة والدك فحسب بل ضيعت صديقك (مايكل) الذي تقضي أغلب يومك هنا في البار كي تسكر وتنسى ما فعلته به.

صاح بغضب: لا تذكريني.

أنت لا تحتاج إلى من يذكرك أنت تعرف جيدًا كيف عادى الناس كلهم من أجلك وشاركك في الخفاء في تجارتك عندما خشي أبوه من مضايقات التجار لكما وتطاول ألسنتهم فيكما وفي عقيدتكما، وبعد موت أمك طعنته فعرضت المحل للبيع دون علمه واكتفيت برد نصيبه بين يوم وليلة دون احترام له وتقدير منك على ما فعله معك.

صاح فيها مرة أخرى وقال لها أنت منحازة له كونك مسيحية مثله، لو كنتِ غير ذلك لما تعاطفتِ معه.

ضحكت بسخرية: أنا صحيح أمتهن مهنة ليست شريفة لكنني لا أسرق أحدًا أو أبيع الوهم لمراهق طائش مثلك.

أنت تضاجعني وتعلم أنك تزني وتنفق علي المال وأنت تعلم أنني لست لك وحدك وتسترضيني كل يوم بالهدايا وتعلم بداخل نفسك أنني لن أرضى عنك وتركت دينك وألحدت وبررت ذلك بأن الله خذلك في أحلامك و...

أطفأ السيجارة في رخام البار بعنف وصفعها بظهر يده على خدها: اخرسي يا عاهرة أنا أشرف منك.

ابتسم النادل ساخرًا وأعاد بسبابته نظارته التي تنزلق من فوق أنفه وقال يبدو أن الفيلم الهندي أوشك على الانتهاء.

وضعت (ريتا) يدها على خدها من قوة الصفعة وأزاحت شعرها من أمام عينيها، وقالت بصوت مرتعد أوجعتك كلمة الإلحاد، ثم نظرت إلى الخلف على منضدة كان يجلس عليها شابان وفتاتان مخمورين ومغيبين عن الوعي وقالت: هؤلاء المعاتيه الثمالى أقنعوك أن الله إله زائف؟ استغلوا محنتك وضيق نفسك وشتات عقلك وجعلوك توظف علمك وعملك كي تدافع عن حقوقهم اللادينية؟

أصبحت محاميًا للحريات وناشطًا حقوقيًّا وأنت لا تعرف حق نفسك ولا حق أصدقائك ولا حق الله عليك.

صدقتهم أن الله لا يبتلي البشر إنما يعذبهم، انجرفت وراء حرياتهم الشاذة وميولهم الجنسية المقززة، شككوك في الصيام وأنكروا عليك التعبد ووصفوه بالتطرف وأنت منساق لهم.

إلى هذا الحد أنت ضائع الهُوية!

ثم نهضت من مكانها وقالت بحماسة شديدة: نعم أنا عاهرة، لكنني لم أترك الرب بل أناديه كل يوم وأرجوه أن ينقذني، نعم أنا عاهرة ولا يشرفني أن يحبني رجل مثلك لا شرف ولا عقل ولا دين له.

اكفهر وجهه وصاح فيها: اغربي عن وجهي أيتها الساقطة.

الفصل العاشر

خرج (يحيى) من الديسكو منهارًا مشتت الطريق لا يعلم من أين أو أين يمضي...!

شرب كثيرًا فوق طاقته واحتماله، ظل يقول كلمات غير مفهومة ويصرخ مناديا أبي، أمي، أين أنتما لم تركتماني ؟إني أنهار... إني أنهار... أغيثاني!

استند إلى سور جسر نهر النيل الذي مر أمامه وظل يبكي.

استجمع أطراف قدميه وتسلق برفق على السور ووقف عليه وصرخ مناديًا على المارة.

أيها السادة، إني أتحدث إليكم...

انتبه له بعض المارة فوقفوا يسمعونه وبعضهم الآخر لم يعره أي اهتمام وانصرف.

"في وطني لاعب الكرة أغنى من البروفيسور، وإذا مرض كبير من أهل الفن عالجوه على نفقة الدولة وإذا مات كفنوه بالعلم،

في وطني خلقت الأحلام للأغنياء والأوهام للمساكين، مطاعم فاخرة للمنعمين ولقيمات من أكياس القمامة للمشردين، في وطني... وأخذ يضحك ساخرًا ثم أردف: في وطني الأزهر الشريف وشارع الهرم وهز أكتافه وتراقص على السور وهو يكرر شارع الهرم هاه هئ تفهمون قصدي. صوت المآذن بات مزعجًا وصوت التراويح أصبح الآن منبوذًا ومبتدعًا وقالوا لم يفعلها رسول الله، ثم صاح قائلا: الله أكبر بعد هذا العمر كله كنت أفعل شيئًا مبتدعا ثم انحنى برأسه على المتجمعين على الجسر متسائلا هل نحن مجانين اتبعنا شيوخًا مفتونين بأنفسهم أم تائهين مضللين؟

أيها السادة، إني أتحدث إليكم، وراح يرفع يده مقلدًا هتلر في حركته النازية.

وأردف قائلا: أنا المتفوق لكن أبويَّ ليسا من السلك الرفيع ولا يمتهنان مهنًا هلامية ولا من أصحاب النفوذ الفولاذية.

أنا الكافر الذي كفر على أيديكم؛ عندما سمعكم تقولون ما لا تفعلون وتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وتحذروننا من مصير

قوم إسرائيل وأنتم أكثر فسقا منهم لم تتركوا جريمة فعلوها وعوقبوا عليها في القرآن إلا وتشبهتم بها واقترفتم الكبائر مثلهم.

ثم راح ينهرهم ويوبخهم قائلا:

غشاشين، ضالين، محرفين، شاهدين للزور، آكلين للربا ومال اليتيم، قلوبكم حجارة وأشد قسوة على المستضعفين.

الرجل منكم يغلق مصحفه لينظر على عورة أخيه، ثم سكت وعلامات الغم على وجهه ونظر باحتقار لهم وأردف: وليته بعدما اطلع صمت. لا لا لا وألف لا وهل يصح أن يمسك المرء لسانه! ألا يعقل أن يترك سبق الحصول على المعلومة التائهة التي يقاتل صاحبها من أجل سترها... يا لوقاحتكم.

صاح فيهم وهو يتمايل غير متزن وغروب الشمس ساقط على نصف وجهه وقال: اتركوني ملحدًا كافرًا لا أومن بشيء، قاطعوني كما قطعتم أرحامكم، اهجروني كما هجرتم مساجدكم، اخذلوني كما خذلتم أقصاكم الأسير، اقتلوني كما قتلتم بعضكم ولعقتم نعال أعدائكم.

إنني اليوم كافر بكم، ملحد بتعاليمكم، ساخط عليكم غير منتمٍ لكم. ثم بكى وهو يقول لقد جعلتم الحليم حيران آآاه، لقد فتنتم المؤمنين، ورفعتم قدر المنافقين، واستأنستم بالكافرين وارتميتم في أحضان الفاسقين... ويلكم ويلكم... أنتم الكفار الملاعين... اتركوني.

صرخت فيه (هيام) للمرة الثانية بعد خمسة عشر عامًا من المرة الأولى، حيث مرت هنا صدفة قرب الجسر ممسكة بيد طفلتها التي تبلغ عامها العاشر: لا، لا تنتحر، إن الانتحار كفر.

التفت لذلك الصوت الذي لم ينسه لحظة ولم يسامح نفسه على تركها بدون أن يفي بوعده لها أو يخوض حربًا مع المتاعب من أجلها.

هيام!

ثم نظر إلى ابنتها وقال لها تزوجتِ وأنجبتِ يا إلهي لقد مر العمر سريعًا، لقد مضى، وما زلت تائها لا شاطئ ولا مرسى لي.

ثم أغمض عينيه متأثرا بأيامه التي مضت دون أن يحقق حلما واحدًا فيها وقال لها بصوت منهزم وهل بعد الإلحاد كفر؟

قال شيخ من المستمعين إليه: والله لقد فتناك، يا للحسرة على شبابنا.

اهدأ يا بني وانزل من فوق السور، لا تلقِ بنفسك إلى التهلكة.

لقد هلكت يا شيخ ولا بدَّ أن ينتهي ذلك الفيلم اللعين الذي أخذت بطولته رغما عني.

ثم نظر إلى الشمس وهي تغرب وأغمض جفنيه عن آخرهما وتذكر نظرة أبيه له قبل موته وهو يجاهد في قول كن قويا كن صبورا لا تكن قاضيا على تصرفات الناس فيهلك عقلك وتمرض نفسك، واستعاد احتضار والدته وهي ملقاة بين ذراعيه وقد فاضت روحها مبتسمة راضية، وسقطت دموعه وهو يستعيد صورة صديقة مايكل وهو يجهر بخصومته واستيائه منه، ورأى في ظلام عينيه المغلقة حوض السمك الذي جفت فيه المياه وتحللت به الأسماك وتعفنت، وتجارة أبيه التي باعها وأنفق ميراثه المتواضع في السفه والفجور، والسوق الذي هجره والحارة؛ متخيلا أن الحياة خارجهما أفضل وأنقى.

وفي أثناء قيام شاب مفتول العضلات والاقتراب منه بحذر لجره بقوة لأسفل، فتح (يحيى) عينيه عن آخرهما وأخذ نفسًا عميقًا... عميقًا حتى انتفخ بطنه ومال بظهره إلى الخلف فتهاوت قدماه وسقط سقوطًا مرعبًا وسريعًا حتى ارتطم رأسه بأرضية الجسر العائم فوق الماء، قبل أن ينزلق ميتًا إلى البحر!

النهاية